جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

عينية « عبدة بن الطبيب »
في وصيته لأبنائه
دراسة بلاغية

الدكتور
علي عبد الموجود نورالدين محمد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء السابع
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدن محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن تراثنا الشعري يعدُّ تجسيدا لحياة أسلافنا على اختلاف صورها السياسية، والاقتصادية ، والاجتماعية، وتصويرا لأحاسيسهم ومشاعرهم وأَفكارهم، ودقائق حكمتهم وخبراتهم في الحياة، والتي ينبغي علينا أن نفيد منها في حياتنا، خاصة إذا كان هذا الشعر يحمل معاني ووصايا نابعة من قلب الموصي الطاعن في السنّ؛ بقصد توجيه الناشئة من الشباب إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وتحذيرهم مما يضرهم ويؤذيهم.

والدرس البلاغي التطبيقي في الشعر يقوم على تذوق النصوص الشعرية، وتحليلها والغوص في أعماقها، عن طريق تتبُّع دقائق صياغتها وبنائها اللغوي، تركيبًا، وتصويرًا، وتحبيرًا؛ وذلك بقصد الكشف عن جوهر المعنى الشعري فيها.

ورغبة في إثراء الدرس البلاغي التطبيقي تأتي هذه الدراسة التي تقوم على تذوق وتحليل قصيدة من شعر الوصايا، لشاعرٍ تميمي مخضرم هو: عبدة بن الطبيب.

وقد انتقيت من شعره "قصيدته العينية" التي يوصي فيها أبناءه بعد أن تقدَّم به العمر، وهي من القصائد التي اختارها المفضَّل الضَّبّي في مفضلياته(١).

واعتمدت في دراستها على منهج التحليل البلاغي القائم على تذوق النص ، وتفقد أبنيته وتراكيبه وصوره، وإبراز علاقات المعاني، وترابط أجزاء النص؛ وذلك بقصد الكشف عن خصوصيات المعاني وأحوالها في القصيدة.

وقد رأيت تقسيم البحث حسب أجزاء القصيدة، ومعانيها الكلية؛ فجاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، متلوة بفهرس المصادر والمراجع.

أشرتُ في **المقدمة** إلى أهمية الموضوع، ومنهجه، وطريقة تناوله.

وتحدثت في **التمهيد** عن الشاعر وسماته الشعرية، وعن القصيدة، وأفكارها، وغرضها، وبحرها العروضي.

وحمل **المبحث الأول** عنوان: " مقدمة القصيدة وحسن الابتداء ".

وجاء **المبحث الثاني** بعنوان: " مسالكه البيانية في وصية أبنائه ".

بينما جاء **المبحث الثالث** بعنوان: افتخاره بنفسه.

أما **المبحث الرابع** فعنوانه: " ختم القصيدة وعلاقته بمطلع ومعاني القصيدة ".

---

(١) روى هذه القصيدة المفضل الضبي (ت١٨٧هـ) فى " المفضليات " ، وهي المفضلية السابعة والعشرون، وعدد أبياتها ثلاثون بيتًا ، وقد بناها الشاعر على قافية العين ، وعلى وزن بحر الكامل. وهى القصيدة السابعة في " شعر عبدة بن الطبيب " الذى جمعه الدكتور / يحيى الجبورى . كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وخلصت إلى **الخاتمة** فذكرت أهم النتائج، ثم فهرس المصادر والمراجع.

والله أسال أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون إضـــافة إلى مكتبة الدرس البلاغي التطبيقي، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين

كتبه

د/ علي عبد الموجود نورالدين

التمهيد

أولًا - عبدة بن الطبيب ... حياته وشعره :

هو عبدة بن يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس ... ينتهى نسبه إلى تميم . والطبيب لقب أبيه .

وكانت تميم فى الجاهلية تُسمَّى عبد تيم ، وتيم صنم كانوا يعبدونه [١] .

وعبدة شاعر مخضرم من شعراء تميم ، عاش أكثر حياته فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام وأسلم وحسن إسلامه ، وهو من الشعراء المجيدين ، ولكنه مُقِلّ ليس بالمكثر [٢] .

عبدة فى الجاهلية :

قضى عبدة معظم حياته فى الجاهلية ، وكان حينئذ مشهورًا بخصلتين : اللصوصية ، والشاعرية . فهو لصٌّ من لصوص الرباب [٣] ، وهو شاعر من شعراء تميم ، يكون مع لصوصهم تارة ، ومع شعرائهم أخرى .

---

(١) ينظر في ترجمته : جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ص ٢١٥ تحقيق/ عبد السلام هارون- طبعة: دار المعارف- مصر١٣٨٢هـ ١٩٦٢م. والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ / ٧٢٧ تحقيق/ أحمد محمد شاكر- طبعة: دار المعارف- مصر١٣٨٧هـ ١٩٦٧م. والأغانى لأبي الفرج الأصفهاني ١٨ / ١٦٣ – ط بولاق. والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ١٨ / ١٦ – طبعة: السعادة ١٣٢٨هـ .

(٢) الأغانى ١٨ / ١٦٣ .

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري المتوفي ٥٨٣ هـ ١٢٧/٥ .الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ . والمقصود بالرباب : ولد عبد مناة : تيم ، وعدى ، وعوف، وثور ، وأشيب . وهؤلاء هم الرباب؛ لأنهم تحالفوا مع بنى عمّهم ضبَّة على بنى عمهم تميم بن مرّ، فغمسوا أيديهم في رب ثم خرجت عنهم ضبّة واكتفت بعددها وبقى سائرهم . (جمهرة أنساب العرب ١٦٨) .

وقد جاء فى بعض الروايات ما يحكى صلته بالشعراء يتنادمون ويتناشدون الأشعار ، ويتحاكمون إلى الشعراء فى أيهم أشعر[١].

عبدة فى الإسلام :

لم تذكر المصادر متى أسلم عبدة بن الطبيب ، ورجح الدكتور / يحيى الجبورى أن يكون عبدة أسلم مع قومه بنى تميم قائلاً : " وفى أكبر الظن أنه أسلم حين أسلم قومه سنة تسع من الهجرة ، ولم نجد له ذكرًا مع المرتدين ، فقد كان إسلامه حسنًا سليمًا ، يظهر ذلك فى شعره العامر بالتقى والصلاح والرغبة فى النصح وعمل الصالحات ، فكأنه قد ندم فى إسلامه على ما كان من إغارته ولصوصيته فى الجاهلية " [٢] .

وقد ورد أول ذكر له فى الإسلام فى فتوح العراق ، فقد كان فى جيش النعمان بن مقرن فى حرب الفرس بالمدائن سنة ١٥ ، ١٦ هـ ، كما شهد مع المثنى بن حارثة قتال " هرمز " ، ويقال إنه هاجر إلى العراق لمهاجرة حليلة له حتى شهد وقعة " بابل " ، فلما آيسته رجع إلى البادية ، وهو يذكر ذلك فى قصيدته " اللامية " ، وهى قصيدة طويلة ذكرها المفضل الضبى فى المفضليات ، وأولها :

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ١٠٧ ، ١٠٨ – تحقيق/ محمد علي البجاوى– ط: نهضة مصر ١٩٦٥. ، والإصابة ٣ / ١٠٠ – ترجمة رقم ٦٣٩٠ ، وقد جاء فيه : " اجتمع الزبرقان بن بدر والمخبل السعدى وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم ، وعلقمة بن عبدة قبل أن يسلموا والنبى ﷺ بمكة قبل أن يبعث ، فنحروا جزورًا واشتروا خمرًا ببعير ، وجعلوا يشوون ويأكلون ويشربون فقال بعضهم : لو أن قومًا طاروا من جودة أشعارهم لطرتم فتحاكموا إلى أول من يطلع عليم ، فطلع ربيعة بن حذار اليربوعى فسُروا به وحكموه " . (الإصابة ٣ / ١٠٠) .

(٢) شعر عبدة بن الطبيب ، للدكتور/ يحيى الجبوري ص٧ – دار التربية للنشر والتوزيع – بغداد ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

هَــلْ حَبْــلُ خَوْلَــةَ بَعْــدَ الهَجْــرِ مَوْصُــولُ

أَمْ أَنْــتَ عَنْهَــا بَعِيــدَ الــدَّارِ مَشْــغُولُ (١)

عبدة فى مواطن البأس :

كان لعبدة دوره البارز فى مواطن البأس والقتال ، وبخاصة فــى معركــة القادسية ، حيث كان من أهل النجدة والفضل الذين وجههم سعد بن أبى وقاصﷺ إلى الناس يحضونهم على القتال ، ويعرفونهم فضل الجهاد لملاقاة الفرس والصبر فى القتال ، وكان منهم : الخطباء كطليحة بن زيد الأسدى ، والشعراء كالشــماخ وعبدة بن الطبيب ، وقد أوصاهم سعد قبل أن يرسلهم بوصية تنبئ عــن عظــم شأنهم ومكانتهم ورجاحة عقولهم وحُسن رأيهم بين الناس ، حيث قــال لهــم : " انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطبــاؤهم وذوو رأيهــم ونجدتهم ، وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال"(٢) .

وقد أبلى المسلمون فى هذه المعركة – وعبدة منهم – أحسن البلاء وكُتب لهم النصر ، وبعدها عاد عبدة بن الطبيب إلى قومه فى البادية (٣) .

---

(١) المفضليات للمفضّل الضبّي (ت١٨٧هـ) ، قصيدة رقم: ٢٦ تحقيــق/ عبــد الســلام هـ ارون– دار المعارف– مصر١٩٦٤. ، وينظر : الأغانى ١٨ / ١٦٣ ، والإصابة ٣ / ١٠٠ ، وتاريخ الطبــرى ٣/ ٤١٢ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبــراهيم– طبعــة: دار المعــارف– مصــر١٩٦١. ، ومعاهــد التنصيص للعباسى ١ / ١٠٢ طبعة/ السعادة ١٣٦٧هـ ١٩٤٧م.

(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٣٣ .

(٣) شعر عبدة بن الطبيب ص ٨ .

مروءته وترفعه عن الهجاء :

عرف عن عبدة الفضل والنجدة والمروءة والشرف ، وكل ذلك من أثر حسن إسلامه ، وآية ذلك أن الشاعر كان يترفع عن الهجاء ويراه سفهًا وضعة ، وقد كان فى الجاهلية يهجو بنى الأعرج ، ويحيى بن هزال وزيد بن مالك .

ولما دخل الإسلام واستقر فى قلبه الإيمان صار يترفع عن الهجاء ويراه سفهًا من القول ، كما يرى تركه مروءة وشرفا [١] .

وفاته :

ذكر الزركلى فى " الأعلام " أنه توفى سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م [٢] .

سمات شعره :

كان عبدة شاعرًا مُقِلاً مجيدًا ، جزل العبارة رصين الأسلوب جميل الأداء[٣] ، ومع قلَّة ما ورد إلينا من شعره فإنه جاء متنوع الأغراض والمقاصد فى شتى فنون الشعر . ويمكن أن نجمل سمات شعره فى الآتى :

---

(١) جاء في الأغانى ١٨ / ١٦٣ : " قال رجل لخالد بن صفوان [من فصحاء العرب وأحد جلساء عمر بن عبد العزيز ، وتوفى سنة ١٣٣ هـ] : كان عبدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجو ، فقال : لا تقل ذاك ، فو الله ما أبى عن عيّ ، ولكنه كان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروءة وشرفًا ، وقال :

وأجرأ من رأيت بظهر غيبٍ ∴ على عيب الرجال أولو العيوب

ـ ينظر : معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)- ١٢٣٣/٣ تحقيق/ إحسان عباس- الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.، ومعاهد التنصيص ١ / ١٠٢ .

(٢) الأعلام للزركلي ١٧٢/٤ دار العلم للملايين- الطبعة الخامسة٢٠٠٢م.

(٣) ينظر : شعر عبدة بن الطبيب ص ١١ .

أولاً : أجاد عبدة وأبدع فى جملة من فنون الشعر منها :

١ - الرثاء : وهو فن المشاعر الصادقة والعاطفة الجياشة والمعانى القلبية العميقة، والألفاظ التى تقطر حزنًا وأسًى وشجنًا .

ومن أشهر مراثى عبدة تلك الأبيات المشهورة التى رثا بها قيس بن عاصم المنقرى سيد تميم ، وقد قالها حين ذهب إليه ليصالحه بعد جفوة كانت بينهم ، فوجده قد مات ، فقال [١] :

عليكَ سلامُ الله قَيْسَ بنَ عاصمٍ
ورحمتُه ما شاء أن يَتَرَحَّما
تحيَّةَ من ألبسته منكَ نعمةً
إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سَلَّما
فما كان قَيْسٌ هَلْكُه هَلْكَ واحدٍ
ولكنَّه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما

وقد شغلت هذه الأبيات الأدباء والشعراء ، فقالوا عن مطلعها: إنها تحية الموتى [٢]، وقالوا فى البيت الثالث : إنه أرثى بيت قالته العرب، وهو قائم بنفسه ما له نظير فى الجاهلية ولا الإسلام[٣] .

---

(١) الأغانى ١٨ / ١٦٣ .

(٢) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢ / ٢١٦ – دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٣) الأغانى ١٨ / ١٦٣ .

وقد وقعت هذه الأبيات من نفوس الناس موقعًا خاصًّا ، فهم يستشهدون بها عند المصائب ، ويتمثلون بها فى الملمات [١] ، فقد روى صاحب الأغانى أنه لما مات عبد الملك بن مروان اجتمع ولده حوله ، فبكى هشام حتى اختلفت أضلاعه ، ثم قال : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، فأنت والله كما قال عبدة بن الطبيب [٢] :

وما كان قيس هَلْكُهُ هَلْكُ واحدٍ

ولكنَّه بُنيانُ قومٍ تهدَّما

٢ - **الهجاء** : شعر عبدة فى الهجاء قليل ، وهجاؤه – مع قلته – قاس شديد موجع ، ولكنه يخلو من الفحش والإقذاع [٣] ، ولعل ذلك ما أغرى بعضهم أن يصفه بأنه لا يجيد الهجاء [٤] ، حيث درج الشعراء فى الهجاء على الإقذاع والفحش فى سلب كل محمدة من المهجو ، وإثبات كل مذمة ومنقصة .

تأمل هجاءه بنى الأعرج ، حين قال [٥] :

شربت الأمورَ وغاليتها

فأولى لكم يا بنى الأعرجِ

تَدُبُّون حولَ ركِيَّاتِكم

دبيبَ القنافذِ في العَرْفَجِ

---

(١) شعر عبدة بن الطبيب ص ١٥ .

(٢) الأغانى ١٣ / ٨٣ – ط دار الكتب المصرية .

(٣) شعر عبدة بن الطبيب ص ١٦ .

(٤) قال هذا رجل لخالد بن صفوان ، وقد سبق ذكره .

(٥) الحيوان للجاحظ ٦ / ٤٦٣ تحقيق/ عبد السلام هارون– طبعة: الحلبي ١٩٤٥م. ، وشعر عبدة بن الطبيب ص١٦

وهو هنا يشبّه هؤلاء القوم بالقنافذ، وهذه الصورة طالما أفاد منها فى تصوير أحوال المهجو سواء كان خصمًا أو نمامًا، كما سنرى فى قصيدته العينية.

٣ - **الغزل** : يرتبط شعر الغزل عند عبدة بحديثه عن الديار أو الرحلة أو الحرب ، ومن ثم فقد جاء حديثه عن المرأة موجزًا فى مطلع قصائده ، والديار تذكر بالمرأة ، وتثير مشاعر الشعراء نحو من سكن هذه الديار .

وعبدةُ ليس من شعراء الغزل المشهورين ، ولا من العشاق المتيمين ، وهو فى أكثر غزله يذكر الشيب ، فهو شيخ وقور مهيب، يقدم غزله بين يدى حديثه عن الديار أو الرحلة أو الحرب [١] .

يقول فى مطلع قصيدته اللامية الطويلة :

هل حبلُ خولةَ بعدَ الهجرِ موصولُ

أم أنتَ عنها بعيدُ الدارِ مشغولُ

حلَّت خويلةُ في دارٍ مجاورةٍ

أهلَ المدائنِ فيها الديكُ والفيلُ

وخولة زوجه ، وهذه القصيدة من غرر قصائده ومن عيون الشعر العربى، قالها عند قتال الفرس فى القادسية ، حيث رحلت خولة من البادية فتابعها، ثم التحق بجيش المسلمين في الجهاد [٢] .

٤ - **الوصف** : حفل شعر عبدة بصور شتى من وصف الطبيعة ، وهى صور تبرز براعته الفنية وخياله الرحب الواسع الوثاب المتنقل فى جنبات الطبيعة

---

(١) شعر عبدة بن الطبيب ص ٢١ .

(٢)المفضليات ص١٣٤. ، وينظر: شعر عبدة بن الطبيب ص ٢٠ .

حوله بشقيها المتحرك ، والساكن .

فمن الطبيعة المتحركة : وصف الثور والناقة والفرس ، وذكر الديك والقنفذ والضب .

ومن الطبيعة الساكنة : وصف الماء ، والرياح ، وزينة البيت ، ومجلس الخمر .

وقد أفاد عبدة من ذكر الحيوانات ، فاستعار طباعها فى تصوير أحوال الإنسان فى : الحقد ، والنميمة ، والضغينة ، والسعى إلى المكاره [١] .

تأمل قوله فى وصف النمام :

قـــومُ إذا دمـــسَ الظـــلامُ علـــيهم

حـــدَجوا قنافـــذَ بالنميمـــةِ تمـــزعُ

وهو يصف النمام حين يخرج بالليل يسعى بالنميمة ، وقد استعار له صورة القنفذ حين يخرج بالليل مستخفيًا بظلامه [٢] .

وقوله يهجو خصمه :

مـــا كنـــتَ أول ضـــبٍّ صـــابَ تلعتَـــه

غيـــثٌ فـــأمرعَ واســـترختْ بـــه الـــدارُ

وعبدة هنا يفيد من حالة الضب حين يخصب فينفخ ويكش نحو كل شيء

(١) ينظر : شعر عبدة بن الطبيب ص ٢١ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٤ / ٥٥ . ، وجمهرة الأمثال- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) ١٥٦/١- الناشر: دار الفكر - بيروت.

يريده ، فيهجو خصمه بهذه الصفة التى فيها بطر وكبر وخيلاء [١] .

وقوله فى الوشاية والنميمة من قصيدته العينية :

وَاعْصُوا الَّذِي يُزْجِي القنافذ[٢] بيْنَكم

مُتَنَصِّحاً، ذَاكَ السِّمامُ المُنْقَعُ

يُزْجِي عَقَارِبَهُ لِيَبْعَثَ بَيْنَكم

حَرْباً كما بَعَثَ العُرُوقَ الأَخْدَعُ

وقد استعار القنفذ للوشاية والنميمة ، والعقارب للأحقاد والضغائن [٣] .

فهذه الصور فى أحوال الحيوان انتزعها الشاعر من بيئته ، وهى لقطات سريعة أفاد منها فى تصوير نزعات بشرية ، ونلحظ فى ذكره للحيوان هنا أنه لا يطيل ، وهو كذلك فى وصف الحيوان عامة لا يطيل ، يذكر ذلك فى بيت أو أبيات، وهو يصف جانبًا جزئيًّا من الحيوان الذى يذكره سواء أكان ذلك الجانب ماديًّا أم معنويًّا [٤] .

ويستثنى من ذلك وصفه للثور فى قصيدته اللامية ، حيث شبه ناقته بثور مسافر مفروق القرنين أسود العينين أبيض البشرة ... [٥] .

---

(١) الحيوان للجاحظ ٦ / ٦٧ ، ٦٨ ، المعاني الكبير في أبيات المعاني- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)٦٥٥/٢ ، تحقيق: المستشرق د سالم الكرنكوي (ت ١٣٧٣هـ)، عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني (١٣١٣ - ١٣٨٦ هـ)- الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن بالهند [الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ ، ١٩٤٩م].

(٢) في المفضليات ص ١٤٦ : واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم .

(٣) الحيوان ٤ / ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٤) شعر عبدة بن الطبيب ص ٢٢ .

(٥) ينظر : المفضليات قصيدة: ٢٦ ، وشعر عبدة بن الطبيب قصيدة: ١٠ .

وقد كان السياق هو الدافع إلى الإيجاز أو الإطناب فى وصف الحيوانات ؛ وذلك ليطابق الكلام مقتضى الحال ، والغرض المقصود من الكلام .

٥ - **الوصية والحكمة** : يتجلى شعر الوصية عند عبدة فى قصيدته العينية الرائعة التى قالها حين تقدمت به السن وأحسَّ بدنو أجله ، فجمع أولاده ليوصيهم ويسدى إليهم نصائحه وحكمته وتجاربه، وهي قصيدة واضحة المعاني، سهلة الألفاظ، سلسة العبارة، هادئة النُّصح، حسنة في السمع، كما سيتبين لنا من خلال دراستها وتحليلها بلاغيًا في هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

ثانياً : إحكام شعره

يتميز شعر عبدة بأنه محكم لا حشو فيه ولا فضول ، وقد قال عنه ربيعة بن حذار الأسدى – حين تحاكم إليه عبدة مع بعض الشعراء – : " .... وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر " (١) .

ولعله بسبب ذلك صار شعره محدودًا وقليلاً ، وقد فطن القدماء لذلك فقالوا : إنه شاعر مُقِلّ ليس بالمُكثر (٢) .

ثالثاً : إعجاب العلماء والنقاد بشعره (٣) :

– وقد أعجب الأدباء والنقاد بشعر عبدة ، معنى ، وأسلوبًا ، فأثنوا عليه

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ١٠٧ ، ١٠٨ . وفى رواية الإصابة ٣ / ١٠٠ خلاف ذلك ، وأن هذا القول قاله في شعر علقمة بن عبدة ، وأما علقمة فكمزادة أحكم خرزها فليس يسقط منها شىء .

(٢) الأغانى ٨ / ١٦٣ .

(٣) الكامل للمبرد ٢ / ٤٩ تحقيق/ زكي مبارك، وأحمد شاكر. طبعة: الحلبي ١٣٥٥هـ ١٩٣٧م. ، والأغاني ١٨ / ١٦٤ ، العقد الفريد– أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) ١٤٣/١ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ .

ومدحوا قائله .

– واحتفل به اللغويون وأعجبوا بلغته ، وذكروا شعره فى كتبهم ، واتخذوا منه شواهد على فصاحة بعض الألفاظ ، ونصوا على أنه أفصح الناس ، فقد روى ابن جنى [١] قول أبى حاتم : كان الأصمعى ينكر " زوجة " ويقول : إنما هى " زوج " ... قال أبو حاتم : وقد قرأنا عليه من قبل لأفصح الناس فلم ينكره :

فبكَى بناتى شجوَهنَّ وزوجتى

والطامعون إلىَّ ثم تصدَّعوا

فقد نصَّ أبو حاتم على أن عبدة من أفصح الناس ، حين استشهد بقوله محتجًّا على استعمال لفظ " زوجة " على خلاف ما رأى الأصمعى .

– وأعجبوا بجودة معانيه وحُسن تقسيمه ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب – وهو من هو رأيًا فى النقد وذوقًا فى الشعر – يعجب بقوله :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدركه

والعيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

وذلك لما فيه من حُسن تقسيم وتفصيل ، ولهذا قال بعد أن سمع هذا البيت : " على هذا بنيت الدنيا "[٢] .

---

(١) الخصائص لابن جنى ٣ / ٢٩٥ – ت : محمد على النجار – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٦ م . وقد استشهد ابن جنى بشعر عبدة أيضًا في باب السلب أى استعمال الألفاظ في سلب معانيها الأصلية لا أثباتها . ينظر : الخصاص ٣ / ٨١ .

(٣) ينظر: البيان والتبين للجاحظ ٢٠٣/١– الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ ــ ٢٤١/١.، والعقد الفريد لابن عبد ربه ١٣١/٦.

- أما الجاحظ فيأسره قول عبدة بن الطبيب فى النميمة :

إنَّ الَّـــــذِينَ تَـــــرَوْنَهُمْ إِخْـــــوَانَكم

يَشْـــفِي غَلِيـــلِ صُـــدُورهم أَنْ تُصْـــرَعُوا

قَـــوْمٌ إِذا دَمَـــسَ الظَّـــلاَمُ علـــيهمُ

حَـــدَجُوا قَنَافِـــذَ بالنَّمِيمَـــةِ تَمْـــزَعُ

ويعلق عليه قائلاً : " وهذا الشعر من غرر الأشعار وهو مما يحفظ " (١) .

وقد قال عن عبدة فى رثاء قيس بن عاصم :

ومـــا كـــان قـــيسٌ هَلْكُـــهُ هَلْـــكُ واحـــدٍ

ولكنَّـــــه بُنْيـــــانُ قـــــومٍ تهـــــدَّما

بأنه : " أشعر من غيره ممن سبقه فى معنى هذا البيت " (٢) .

ويرى ابن الأعرابى أن هذا البيت " ما له ثانٍ فى جاهلية ولا إسلام قـائم بنفسه " (٣) .

هكذا أبدى الأدباء والنقاد القدامى إعجابهم بشعر عبدة بـن الطبيـب ، وذكروا روائع معناه ، ووقفوا عند أبيات من شعره يحفظونها ويضـربون بهـا الأمثال لجودتها ، غير أن أسامة بن منقذ أخذ عليه بيتًا رآه مغلـوط المعنـى ، ووصفه بأنه من بارد الشعر ، وذلك قوله :

---

(١) الحيوان ٤ / ١٦٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٣٨ .

(٣) نور القبس (المختصر من المقتبس) – يوسـف بـن أحمـد الحـافظ اليغمـوري ص ٣٠٣ ط: فسبادن١٣٨٤هـ ١٩٦٤م. ، وينظر : شعر عبدة بن الطبيب ص ١٢ ، ١٣ .

يَحْمِلْـــنَ أُتْرُجّـــةً نَضْـــخُ العَبِـــيرِ بهـــا

كَـــأَنّ تَطْيابَهـــا فـــي الأَنْـــفِ مَشْـــمُومُ

وعلل رأيه بقوله : " لأن الشم لا يكون بالعين ، وإنمـا هـو بـالأنف ، والتطياب أيضًا من أقبح المصادر وأبردها وأغثها " (١) .

وغنى عن البيان أنه لا يوجد شاعر من شعراء العربية أجمع النقاد علـى جودة شعره كله أو ارتضوا شعره كله .

رابعاً : شعره بين التأثير والتأثر

أفاد شاعرنا من معانى غيره ممن سبقه من الشعراء ، كما أفاد منه مـن جاء بعده من الشعراء ، وهذا من قبيل التأثر والإفادة المصحوبة بإعادة الصياغة والتفنن فى العبارة بشكل يزيد على ما قبله ، مما يجعله بعيدًا عن السرقة ، فقـد تأثر شاعرنا بقول امرئ القيس :

نمـــش بـــأعراف الجيـــاد أكفنـــا

إذا نحن قمنا عن شواءٍ مهضَّبِ (٢)

أخذه عبدة فقال :

ثمـــت قمنـــا إلى جـــرد مســـومة

أعـــرافُهن لأيـــدينا مناديـــلُ (٣)

---

(١) البديع لابن منقذ ص ١٦٠ تحقيق/ عبد المجيد بدوي- طبعـة: وزارة الثقافـة- مصـر١٩٦٠م. وينظر: شعرة عبدة بن الطبيب ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص٥٤ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم- الطبعة الخامسة- دار المعـارف- مصر.

(٣) شعر عبدة بن الطبيب ص ٣١ .

وقال امرؤ القيس :

فلـــو أنهـــا نفـــسٌ تمـــوتُ جميعـــةً

ولكنهـــا نفـــسٌ تَسَـــاقطُ أنفُسَـــا (١)

أخذه عبده فكشفه وأرهفه وساوى فيه من تقدمه (٢) ، فقال :

فمـــا كـــان قـــيسٌ هَلْكُـــهُ هَلْـــكُ واحـــدٍ

ولكنَّـــــه بُنيـــــانُ قـــــومٍ تهـــــدَّما

فقد فاق عبدة هنا سابقه حتى قالوا عن هذا البيت : إنه أرثى بيت قالتـــه العرب ، وهو قائم بنفسه ماله نظير فى الجاهلية ولا الإسلام (٣) .

أما قول عبدة :

قَـــــوْمٌ إذا دَمَـــــسَ الظَّـــــلاَمُ علـــــيهمُ

حَـــــدَجُوا قَنَافِـــــذَ بالنَّمِيمَـــــةِ تَمْـــــزَعُ

فقد تأثر به جرير فقال :

يـــــــدبون حـــــــول ركيَّـــــــاتهم

دبيـــــبَ القنافـــــذِ في العـــــرفج (٤)

* * *

(١) ديوان امرئ القيس ص١٠٧

(٢) الرسالة الموضحة للحاتمي ص ١٥٣ تحقيق/ محمد يوسف نجم. طبعة: بيروت١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

(٣) الأغانى ١٨ / ١٦٣ .

(٤) ينظر : ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢ / ٤٩٦ ، ولم أجده في ديوان جرير.

ثانياً - حول القصيدة

يقول عبدة بن الطبيب :

١ - أَبَنِـــيَّ إِنِّـــي قَـــد كَبِـــرْتُ ورَابَنِـــي
بَصَـــرِي ، وفِـــيَّ لِمُصْـــلِحٍ مُسْـــتَمْتَعُ

٢ - فَلَـــئِنْ هَلَكْـــتُ لقَـــدْ بَنَيْـــتُ مَسَـــاعِيًا
تَبْقَـــى لكـــمْ منهـــا مَـــآثِرُ أَرْبَـــعُ

٣ - ذِكْـــرٌ إِذا ذُكِـــرَ الكِـــرَامُ يَـــزِينُكمْ
ووِرَاثَـــةُ الحَسَـــبِ المُقَـــدَّمِ تَنْفَـــعُ

٤ - ومَقَـــامُ أَيَـــامٍ لَهُـــنَّ فَضِـــيلةٌ
عنـــدَ الحِفِيظَـــةِ والمَجَـــامِعُ تَجْمَـــعُ

٥ - ولُهًـــى مِـــن الكَسْـــبِ الَّـــذِي يُغْنِـــيكُمُ
يومًـــا إِذا احْتَصَـــرَ النُّفُـــوسَ المَطْمَـــعُ

٦ - ونَصِـــيحَةٌ في الصَّـــدْرِ صَـــادِرَةٌ لكـــم
مـــا دُمْـــتُ أُبْصِـــرُ في الرِّجَـــالِ وأَسْـــمَعُ

٧ - أُوصِـــيكُمُ بِتُقَـــي الإِلـــهِ فَإِنَّـــهُ
يُعْطِـــي الرَّغَائِـــبِ مَـــنْ يَشَـــاءُ ويَمْنَـــعُ

٨ - وبِبِـــرِّ وَالِـــدِكُمْ وطاعَـــةِ أَمْـــرِهِ
إِنَّ الأَبَـــرَّ مِـــن البَـــنِينِ الأَطْـــوَعُ

٩ - إنَّ الكَـــــبِيرَ إذا عَصَـــــاهُ أَهْلُـــــهُ

ضَـــاقَتْ يَـــدَاهُ بـــأَمرِهِ مـــا يَصْـــنَعُ

١٠ - وَدَعُـــوا الضَّـــغِينَةَ لا تَكُـــنْ مِـــن شـــأْنِكمْ

إنَّ الضَّـــــغائنَ لِلْقَرَابَـــــةَ تُوضَـــــعُ

١١ - وَاعْصُـــوا الَّـــذِي يُزْجِـــي النَّمَـــائِمَ بيْـــنَكم

مُتَنَصِّـــــحاً، ذَاكَ السِّـــــمامُ المُنْقَـــــعُ

١٢ - يُزْجِـــي عَقَارِبَـــهُ لِيَبْعَـــثَ بَيْـــنَكم

حَرْبـــاً كمـــا بَعَـــثَ العُـــرُوقَ الأَخْـــدَعُ

١٣ - حَـــرَّانَ لا يَشْـــفِي غَلِيـــلَ فُـــؤَادِهِ

عَسَـــلٌ بمـــاءٍ في الإِنَـــاءِ مُشَعْشَـــعُ

١٤ - لا تَـــأْمَنُوا قَوْمـــاً يَشِـــبُّ صَـــبِيُّهُمْ

بَـــيْنَ القَوَابِـــل بالعَـــدَاوَةِ يُنْشَـــعُ

١٥ - فَضِـــلَتْ عَـــدَاوَتُهُمْ عَلَـــى أَحْلاَمِهِـــمْ

وأَبَـــتْ ضِـــبَابُ صُـــدُورِهم لا تُنْـــزَعُ

١٦ - قَـــوْمٌ إذا دَمَـــسَ الظَّـــلاَمُ علـــيهمُ

حَـــدَجُوا قَنَافِـــذَ بالنَّمِيمَـــةِ تَمْـــزَعُ

١٧ - أَمْثَـــالُ زَيْـــدٍ حِـــينَ أَفْسَـــدَ رَهْطَـــهُ

حتَّـــى تَشَـــتَّتَ أَمْـــرُهم فَتَصَـــدَّعُوا

١٨ - إنَّ الَّـــذِينَ تَـــرَوْنَهُمْ إِخْـــوَانَكم

يَشْـــفِي غَلِيـــلِ صُـــدُورهم أَنْ تُصْـــرَعُوا

١٩ - وثَنِيَّـــةٍ مِـــن أَمْـــرِ قَـــوْمٍ عَـــزَّةٍ

فَرَجَـــتْ يَـــدَايَ فكـــانَ فيهـــا المَطْلَـــعُ

٢٠ - ومَقَـــامِ خَصْـــمٍ قـــائِم ظَلِفَاتُـــهُ

مَـــنْ زَلَّ طـــارَ لـــه ثَنَـــاءٌ أَشْـــنَعُ

٢١ - أَصْـــدَرْتُهُمْ فيـــهِ أُقَـــوِّمُ دَرْأَهُـــمُ

عَـــضَّ الثِّقَـــافِ وهُـــمْ ظِمـــاءٌ جُـــوَّعُ

٢٢ - فَـــرَجَعْتُهُمْ شَـــتَّى كـــأَنَّ عَمِيـــدَهُمْ

في المَهْـــدِ يَمْـــرُثُ وَدْعَتَيْـــهِ مُرْضَـــعُ

٢٣ - ولقـــد عَلِمْـــتُ بـــأَنَّ قَصْـــرِيَ حُفْـــرَةٌ

غَبْـــرَاءُ يَحْمِلـــنِي إِليهـــا شَـــرْجَعُ

٢٤ - فَبَكَـــى بَنَـــاتِي شَـــجْوَهُنَّ وزَوْجَتِـــي

والأَقْرَبُـــونَ إِلـــيَّ، ثُـــمَّ تَصَـــدَّعُوا

٢٥ - وتُرِكْـــتُ في غَبْـــراءَ يُكْـــرَهُ وِرْدُهـــا

تَسْـــفِي عَلَـــيَّ الـــرِّيحُ حِـــينَ أُوَدَّعُ

٢٦ - فـــإِذا مَضَـــيْتُ إِلى سَـــبِيلِي فَـــابْعَثُوا

رَجُـــلاً لَـــهُ قَلْـــبٌ حَدِيـــدٌ أَصْـــمَعُ

٢٧ - إنَّ الحـــوادثَ يَخْتَـــرِمْنَ، وإنَّمـــا

عُمْـــرُ الفَتَـــى في أَهلِـــهِ مُسْـــتَوْدَعُ

٢٨ - يَسْـــعَى ويَجْمَـــعُ جاهِـــداً مُسْـــتَهْتِرًا

جِـــدًّا، ولَـــيْسَ بآكِـــلٍ مـــا يَجْمَـــعُ

٢٩ - حتَّـــى إذا وَافَـــى الحِمَـــامُ لِوَقْتِـــهِ

ولكُـــلِّ جَنْـــب لا مَحَالَـــةَ مَصْـــرَعُ

٣٠ - نَبَـــذُوا إليـــهِ بالسَّـــلامَ فلَـــمْ يُجِـــبْ

أَحَـــداً وصَـــمَّ عَـــنِ الـــدُّعَاءِ الأَسْـــمَعُ[1]

المناسبة والمقام :

حين أسنّ عبدة وأدركه الكبر ورابه بصره جمع أبناءه ليوصيهم ، ويُسدى إليهم نصائحه وحكمته ، ويوجههم إلى ما فيه مصلحتهم فى مستقبل حياتهم ، فأنشأ هذه القصيدة العينية الرائعة ، الناطقة بحكمة وتجارب السنين ، المصورة لوقار الشيخوخة وخبرتها ، والمعبرة عن إيمانه العميق بالله سبحانه وتعالى ، وبتعاليم الإسلام .

والغرض من القصيدة الوصية والنصح والإرشاد ، وقد ضمنها من المعانى والألفاظ والتراكيب ما يحقق هذا الغرض ويقرره .

رواية القصيدة :

روى هذه القصيدة المفضل الضبى (ت١٨٧ هـ) فى " المفضليات " ،

(١) القصيدة في المفضليات ص ١٤٥- ١٤٩ قصيدة رقم: ٢٧ .

وهى المفضلية السابعة والعشرون ، وعدد أبياتها ثلاثون بيتًا ، وقد بناها الشاعر على قافية العين ، وعلى وزن بحر الكامل .

وهى القصيدة السابعة فى " شعر عبدة بن الطبيب " الذى جمعه الدكتور / يحيى الجبورى .

ألفاظ القصيدة ومعانيها :

يغلب على ألفاظ القصيدة الوضوح والسلاسة ، وعلى أفكارها السهولة والبساطة ، وتتجلى شخصية الشاعر المبدعة فى الصياغة والبناء اللغوى المحكم بمكوناته وعلاقاته التركيبية ، وصوره الكاشفة عن مسالك وأوجه دلالته على المعانى .

وقد تضمنت القصيدة معانى وأفكارًا جزئية تلاحمت وتضامت لبناء المعنى العام ، وتحقيق الغرض المقصود من إنشائها ، وهو الوصية والنصيحة التى سلك لها الشاعر مسالك بيانية متنوعة ومتناغمة .

ويمكن إجمال معاقد القصيدة ومعانيها الجزئية فى الآتى :

أولاً : مقدمة القصيدة [الأبيات ١ – ٦] :

وقد حوت بيت المطلع ، وخمسة أبيات مهَّد فيها الشاعر لغرضه ، وذلك بسرد ما خلَّف لهم من مآثر باقية ومكارم يفخرون بها بعده .

ثانياً : الوصية والنصيحة [الأبيات ٧ – ١٨] :

والوصية : التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنًا بوعظ [١] ، وذلك على سبيل النصيحة والإرشاد .

---

(١) تاج العروس للزبيدى (وصى) ٤ / ٢٠٩ .

وقد أوصاهم ونصحهم بتقوى الله تعالى ، وببر الوالدين والاتحاد وترك التنابذ ، والحذر من النمام والمنافق .

ثالثاً : **التنويه بحسن رأيه فى المعضلات وغلبته فى المفاخرة** [الأبيات ١٩ – ٢٢] :

رابعاً : **رثاء نفسه** [الأبيات ٢٣ – ٢٦] :

وذلك بتصوير يومه الأخير فى الدنيا ، وذكر البكاء عليه فى القبر الذى يضمه بعد موته .

خامساً : **ختم القصيدة بالحكمة والموعظة** [الأبيات ٢٧ – ٣٠] :

حيث قدَّم لأبنائه عزاءً بأن الموت غاية كل حىّ [١] ، ومهما عاش الإنسان من عُمْر مديد فإنه مستودع فى أهله وحتمًا سيعود إلى ربه بعد انقضاء أجله .

بالتأمل فى هذه المعاقد الخمسة المكونة لهيكل القصيدة وبنيانها ومعناها العام ، ندرك أن الشاعر كان حريصًا على ترسيخ الغاية والمقصد الذى قصد إلى غرسه فى نفوس أبنائه ، وهو الإقبال على وصاياه والإفادة من نصائحه، بعد أن تستقر فى قلوبهم وعقولهم .

وقد سلك من المسالك البيانية والأسلوبية ما يحقق هذه الغاية ويقرر هذا المقصد ، حيث بدأ قصيدته بمقدمة مهَّد بها لتقبل وصاياه ، وهيَّأ نفوس أبنائه وحرَّك عقولهم ومشاعرهم بهذا الخطاب الأبوي ذى العاطفة القوية المحتدمة .

وبعد التهيئة والاستمالة الحثيثة بشتى وسائل الإبانة يشرع فى وصاياه التى تنطلق من قيم الإسلام الروحية التى آمن بها وخالطت شغاف قلبه ؛ حيث أوصاهم بتقوى الله تعالى ، وبرّ الوالدين ، ثم حذرهم من النمام الذى يزرع

---

(١) ينظر : المفضليات للمفضل الضبى ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد ص ١٤٥ ، دار المعارف ، الطبعة السادسة .

الضغائن ويسعى لإفساد روابط الأخوة بينهم ، وهو يستلهم هذه المعانى من تعاليم الإسلام والقرآن الكريم .

والتأثر بقيم الإسلام ومعانيه الروحية بدا واضحًا عند جمهرة من الشعراء المخضرمين – وعبدة واحد منهم – فى جوانب من أشعارهم التى يصدرون فيها عن تلك القيم التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم [١] .

وقد اتخذ عبدة من الإبانة عن حُسن رأيه فى المعضلات ، والتنويه بغلبته فى المفاخرة أحد وسائله فى تحريض أبنائه وحثهم على الاقتداء به وتقبّل وصاياه.

أما تصويره ليومه الأخير وحديثه عن القبر والموت ، والحكمة والموعظة التى ختم بها القصيدة ، فإنها تعكس حال الوهن والضعف والشعور بدنوّ الأجل ؛ مما دفعه إلى جمع بنيه وإيصائهم بما ينفعهم .

والشعور بالوهن ودنوّ الأجل ، والخوف على أبنائه ، والحرص على توجيههم إلى ما ينفعهم ، وكل هذه المعانى التى تفوح من أبيات القصيدة ، وتهيمن على مفاصلها هى معانٍ سهلة واضحة ، مطروقة يدركها عامة الناس ، غير أن شاعرنا ابدع فى صياغتها والتعبير عنها، ونوَّع فى مسالك الإبانة عنها، كما سيتضح لنا بمشيئة الله تعالى عند تحليلنا لأبيات القصيدة ومعاقد المعانى فيها.

(١) ينظر : تاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى) د / شوقى ضيف ص ٦٨ ، ٦٩ دار المعارف- مصر.

نظم القصيدة على بحر الكامل :

لما كان غرض القصيدة واضحًا وصريحًا ، ومعانيها سهلة رقيقة ، والعاطفة الأبوية فيها قوية جياشة ، فقد اصطفى شاعرنا " بحر الكامل " ليكون وعاءً يجمع معانيه ، وميزانًا عروضيًّا لألفاظ وتراكيب قصيدته .

وهذا البحر فيه طواعية للعديد من الأغراض الواضحة والصريحة ، وهو مترع بالموسيقى ، ويتفق مع الجوانب العاطفية الجياشة والمحتدمة داخل الإنسان ، كما أنه يجمع بين صفتى الفخامة والرقة ، فمن خصائص هذا البحر أن الحركات فيه تغلب على السكنات :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن ∴ متفاعلن متفاعلن متفاعلن

فتفعيلته فيها خمسة أحرف متحركة ، وحرفان ساكنان . وهذا يؤكد جانب الجزالة خاصة إذا ظهرت فيه ظاهرة التشديد ، بمعنى كثرة الحروف المشددة فى ألفاظ البيت .

فإذا كثرت السكنات فى تفعيلته بدخول بعض أنواع الزحافات والعلل التى من شأنها تسكين المتحرك – وطبيعة هذا البحر تسمح بذلك – وساعدتها حروف المدّ ، كان جانب الرقة والعاطفة هو الغالب [١] .

وقد تجلّى هذان الجانبان لبحر الكامل فى عينية عبدة ، فمزجت فيها الفخامة بالرقة .

وبعد هذه الجولة القصيرة مع الشاعر عبدة بن الطبيب وشعره ، نبحر فى خضم قصيدته العينية ، نغوص فى معانيها ونتأمل فى ألفاظها وتراكيبها ،

---

(١) ينظر : أبو تمام وقضية التجديد في الشعر . د / عبده بدوى ص ٢٧٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

ونلتقط من درر البيان فيها ما يجعلنا نضع أيدينا على دقائق نظمه وجودة أسلوبه وحُسن بيانه فى وصيته لأبنائه من خلال هذه القصيدة التى بين أيدينا ، وهى من شعر الوصية .

والوصية : التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنًا بوعظ ، من قولهم : أرض واصية ، متصلة النبات ، وصت الأرض : اتصل نباتها ، ووصى النبت : اتصل وكثر [١] .

فمن خلال الوصية تتواصل الأجيال وتنتقل خبرات السابق وتجاربه إلى اللاحق ، فيفيد منها ويضيف إليها .

والوصية تكون من الإنسان لنفسه ولغيره ، أما الإنذار فيكون فقط للغير ، تقول : أوصيت نفسى ، كما تقول : أوصيت غيرى ، ولا تقول : أنذرت نفسى ، والإنذار لا يكون إلا بالزجر عن القبيح ، وما يعتقد المنذر قبحه [٢] .

والوصية من الله تعالى فرض ، فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء : ١١] معناه : يفرض عليكم [٣] .

وتأتى الوصية بمعنى الأمر ، تقول : أوصيته بالصلاة ؛ أى أمرته بها ، فلفظ الوصية مشترك بين التذكير والاستمالة والاستعطاف وبين الأمر [٤] .

وقد قالت الأعرابية لابنها : الوصية أجدى عليك من كثير عقلك [٥] .

---

(١) تاج العروس للزبيدي (وصى) ٤ / ٢٠٩ طبعة: الخيرية- مصر ١٣٠٦هـ .
(٢) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ص ٧٨ ، مؤسسة النشر الإسلامى ، ط أولى ١٤١٢ هـ .
(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٨ / ٣٩٥ – دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .
(٤) ينظر : المصباح المنير في غريب الحديث لأحمد بن محمد بن على الفيومى ٢ / ٦٦٢ ، المكتبة العلمية – بيروت .
(٥) جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمى ١ / ١٨٤ ، مؤسسة المعارف – بيروت .

المبحث الأول

مقدمة القصيدة وحُسن الابتداء

ابتدأ عبدة قصيدته بمقدمة نادى فيها أبناءه واصفًا لهم حاله ، كاشفًا عن حُسن رأيه ورجاحة عقله ، وما ألبسته الأيام من موعظة ومأثرة ، وما خلفه لهم من مكارم قد بناها ، ومناقب قد حصَّلها بسعيه وجناها .

فقد مسَّه الكبر وحلّ بجسمه الضعف والوهن ، وأحسّ من نفسه بفضل رأى وتجربة ، فأحبّ أن يشرك أبناءه فيما أكسبته الأيام من موعظة حسنة ، ومأثرة بليغة (١) .

وكم كان رائعًا حين مهَّد لموعظته ووصيته بمقدمة هيَّأ بها النفوس لتقبُّل نصائحه ، فحديثه عن نفسه وما تركه لأبنائه من مآثر ومناقب باقية يعود إلى حرصه على إقبالهم على وصاياه ؛ لما فى ذلك من تحفيز النفوس وتحريك المشاعر ، فتقبل على العمل بالوصية والأخذ بالنصيحة ؛ ولأن الدخول فى التوجيه المباشر قد يبدو جافًّا ، ولغة الأمر والنهى – فى الغالب – لا تلقى صدى أو قبولاً من الأبناء :

١ - أَبَنِيَّ إِنِّي قد كَبِرْتُ ورَابَنِي
بَصَرِي ، وفِيَّ لِمُصْلِحٍ مُسْتَمْتَعُ

٢ - فَلَئِنْ هَلَكْتُ لقَدْ بَنَيْتُ مَسَاعِيًا
تَبْقَى لكمْ منها مَآثِرُ أَرْبَعُ

(١) شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزى ١ / ٦٨٧ ، ت د / فخر الدين قباوة ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

٣ - ذِكْـــرٌ إذا ذُكِـــرَ الكِـــرَامُ يَـــزِينُكمْ

ووِرَاثَـــةُ الحَسَـــبِ المُقَـــدَّمِ تَنْفَـــعُ

٤ - ومَقَـــامُ أَيَـــامٍ لَهُـــنَّ فَضِـــيلةٌ

عنـــدَ الحِفيظَـــةِ والمَجـــامِعُ تَجْمَـــعُ

٥ - ولُهًـــى مِـــن الكَسْـــبِ الَّـــذِي يُغْنِـــيكُمُ

يومًـــا إذا احْتصَـــرَ النُّفُـــوسَ المَطْمَـــعُ

٦ - ونَصِـــيحَةٌ في الصَّـــدْرِ صَـــادِرَةٌ لكـــم

مـــا دُمْـــتُ أُبْصِـــرُ في الرِّجـــالِ وأَسْـــمَعُ

فهذا الابتداء ينم عن خبرة الرجل بطبائع النفـوس ، ودرايتـه بـأحوال المخاطبين ؛ فقد كان أحد الشعراء الذين أرسلهم سيدنا سعد بن أبـى وقـاص ﷺ إلى القبائل لتحفيز الناس وحثهم على الجهاد في موقعة القادسية [١] .

ويأتى بيت المطلع في صدر أبيات المقدمة [٢] :

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري ٣ / ٥٣٣ .

(٢) يقصد بالمقدمة كل ما يسبق موضوع القصيدة من العناصر والمعانى أو التمهيـد الـذى يسـوقه الشاعر قبل الدخول في موضوعه ، وتعبير " المقدمة " جرى استخدامه فـي الدراسـات الأدبيـة الحديثة (ينظر: في الميزان الجديد- محمد مندور (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ٢٦/١- الناشـر: نهضـة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- ٢٠٠٤م). أما النقاد والقدماء فإنهم استخدموا تعبيرات أخـرى للدلالة على هذا المعنى ، مثل : تعبير " المبدء " الذى استخدمه ابن رشيق للدلالة علـى المعنـى نفسه . (ينظر : ، والعمدة ١٩٧/١ الطبعة الأولى- دار الطلائـع- القـاهرة٢٠٠٦م). ويقصـد بالمطلع البيت الأول من القصيدة كما هو الشائع عند النقاد . (ينظر كلام العلمـاء وأقـوالهم فـي المطلع في كتاب : العمدة لابن رشيق١٩٧/١، وينظر : مطلع القصيدة العربية ودلالتها النفسية ، د / عبد الحليم حفنى ص ١٤ ، ١٥ –ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م) .

أَبَنِـــيَّ إِنِّـــي قَـــد كَبِـــرْتُ ورَابَنِـــي

بَصَـــرِي ، وفِـــيَّ لِمُصْـــلِحٍ مُسْـــتَمْتَعُ

وفيه بث لمشاعره وتجسيد لحاله ، وإشارة إلى الغرض المقصود ، حيث صدر حديثه بالنداء " أبنى " المقصود منه التقريب والاستعطاف ، ووصف حـال الضعف والوهن الذى حلَّ بجسمه لتقدُّم سنّه ، وقرر حُسن رأيه ورجاحة عقلـه " وفيَّ لمصلح مستمتع " ، وتلك إشارات ودلالات لمقصوده فى الوصـية والنصـح والتوجيه لأبنائه ، وهذا ما يطلق عليه البلاغيون " براعة الاستهلال "[١] ، حيـث يتضمن المطلع إشارة إلى الغرض المقصود من القصيدة ، وبـذا يكـون بمثابـة العنوان لها والمفتاح الذى يمكن المتلقى من الدخول فى معانيه الشعرية والغوص فى دلالاتها ومقاصدها البيانية ، فـ " الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغى للشـاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده مـن أول وهلة " [٢] .

فتجويد الابتداء والتأنق فيه مطلب بيانى ومعنوى للمتكلم والمتلقى معًـا ، فالمتكلم يصب فيه مشاعره وانفعالاته إزاء موضوعه ، ويفصح من خلالـه عـن غرضه ومقصوده ، وبذا يكون مطيته إلى النجاح فى التأثير فى نفس المتلقـى ، الذى يتحقق لنفسه الانشراح والأريحية والإقبال على الكلام ، ومشاركة المتكلم فى عواطفه ومشاعره .

وقد ذكر البلاغيون أنه " ينبغى للمتكلم أن يتأنق فى ثلاثة مواضـع مـن

---

(٣) براعة الاستهلال: أن يكون الابتداء مناسبًا للمقصود، بتضمينه شيئًا مما سيق الكلام لأجله ؛ ليكون دالًا عليه . (عروس الأفراح للسبكي٥٣٣/٤ (ضمن شروح التلخيص) طبعة: دار السرور- بيروت.

(٢) العمدة لابن رشيق ١٨١/١.

كلامه " [١] ، وهى : الابتداء – التخلص – الانتهاء .

والتأنق : هو تطلب الأحسن والنظر فى الشىء ليؤتى بما يونق أى يعجب منه [٢] ، والتعبير بقولهم : (تطلب) يفيد معنى التتبع وتحرى النظر والطلب ، يقال : تأنق فى الروضة ، إذا وقع فيه متتبعًا ، أى كان فيها حال كونه يتتبع أى يطلب وينظر ما يونقه ، أى يعجبه .

فعلى المتكلم شاعرًا كان أو ناثرًا أن يتتبع ويتحرى الطلب ويدقق النظر فى هذه المواطن الثلاثة ليأتى بما يونق ويعجب .

وقد وضع البلاغيون معيارًا للتأنق فى هذه المواضع الثلاثة حتى تبدو معجبة مونقة مؤثرة ، وذلك حين قالوا : " .... حتى تكون [أى المواضع الثلاثة] أعذب لفظًا ، وأحسن سبكًا ، وأصح معنى " [٣] .

والتعبير بصيغة اسم التفضيل فى (أعذب – أحسن – أصح) لإفادة أن المقصود وهو الزيادة على أصل هذه الأوصاف (العذوبة – الحُسن – الصحة) ؛ لأن وجودها مطلب فى كل كلام فصيح بليغ ، وإنما يتحقق التفوق بالزيادة فيها ، ومن ثم كان حديثهم عن هذه المواضع .

وعذوبة اللفظ: حُسنه ورقته ووضوحه، وبُعده عن التنافر واستثقال الطبع .

وحُسن سبك الكلام يعنى : حُسن صياغته وتركيبه ونسجه ، وتقارب ألفاظه فى الجزالة والمتانة والرقة والسلاسة ، والتلاؤم والتناسب بين ألفاظه ومعانيه .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزوينى ص ٤٣٩ ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت .
(٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٤ / ٥٢٩ ضمن شروح التلخيص .
(٣) الإيضاح ص ٤٣٩ ، شروح التلخيص ٤ / ٥٢٩ .

وصحة المعنى تحصل بالسلامة من التناقض والامتناع والبطلان ، والسلامة من الابتذال ، ومن عدم مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب [١] .

ولعل إفراد هذه المواضع الثلاثة بالذكر ، وحث المتكلم على التأنق فيها بالذات ؛ لأهميتها فى التعبير عن المعنى المراد وتحقيق المقصود من البوح بالمشاعر والانفعالات، والتأثير فى المتلقى والحرص على إقباله ؛ فالابتداء أول ما يقرع السمع فإذا كان عذبًا حسن السبك صحيح المعنى أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه لانسياق النفس إليه ورغبتها فيه من حسنه الأول واستصحابه لذة المذاق السابق ، وإلا يكن كذلك أعرض عنه السمع ونافره ، وإن كان الباقى من الكلام حسنًا ؛ لأن السمع قاطعه الابتداء القبيح ، وهذا أمر محسّ يدرك بالتجربة [٢] .

والتخلص : الانتقال والخروج مما ابتدئ الكلام وافتتح به إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما [٣] وهذا يعطى الكلام قوة ويكسبه انسجامًا وتآلفًا وترابطًا ؛ مما يحرك من نشاط السامع ويعينه على الإصغاء والإقبال .

أما الانتهاء : فإنه آخر ما يعيه السمع ، ويرتسم فى النفس ، فإن كان مختارًا موصوفًا بالأوصاف السابقة جبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير ، وإن كان غير ذلك ربما أنسى محاسن ما قبله [٤] .

وعند التأمل فى عينية عبدة بن الطبيب ندرك تألقه فى سماء البيان المبدع ؛ حين تأنق فى المواضع الثلاثة من قصيدته ، فجاءت أعذب لفظًا ،

---

(١) ينظر : مواهب الفتاح لليعقوبى ٤ / ٥٢٩ ، ٥٣٠ . ضمن شروح التلخيص .
(٢) ينظر : مواهب الفتاح ٤ / ٥٣١ .
(٣) ينظر : شروح التلخيص ٤ / ٥٣٥ .
(٤) ينظر : الإيضاح ص ٤٤٤ .

وأحسن سبكًا ، وأصح معنى :

تأمل معى الابتداء المتناغم والمتناسب مع المقصود :

أَبَنِـــيَّ إِنِّـــي قَـــد كَبِـــرْتُ ورَابَنِـــي
بَصَـــرِي ، وفِـــيَّ لِمُصْـــلِحٍ مُسْـــتَمْتَعُ
فَلَـــئِنْ هَلَكْـــتُ لقَـــدْ بَنَيْـــتُ مَسَـــاعِيًا
تَبْقَـــى لكُـــمْ منهـــا مَـــآثِرُ أَرْبَـــعُ
ذِكْـــرٌ إِذا ذُكِـــرَ الكِـــرَامُ يَـــزِينُكمْ
ووِرَاثَـــةُ الحَسَـــبِ المُقَـــدَّمِ تَنْفَـــعُ
ومَقَـــامُ أَيـــامٍ لَهُـــنَّ فَضِـــيلةٌ
عنـــدَ الحِفِيظَـــةِ والمَجـــامِعُ تَجْمَـــعُ
ولُهًـــى مِـــن الكَسْـــبِ الَّـــذِي يُغْنِـــيكُمُ
يومًـــا إِذا احْتَصَـــرَ النُّفُـــوسَ المَطْمَـــعُ
ونَصِـــيحَةٌ في الصَّـــدْرِ صَـــادِرَةٌ لكُـــم
مـــا دُمْـــتُ أُبْصِـــرُ في الرِّجَـــالِ وأَسْـــمَعُ

فابتدأ بنداء المستهدف من الوصية وهم أبناؤه : " أبنيَّ " ، بأداة النداء " الهمزة " التى تستعمل في نداء القريب ، والقرب هنا قرب مكانٍ ومكانـــة ؛ فقـــد جمع الرجل أبناءه وفلذات أكباده ليوصيهم بعد أن تقدَّم به العمر ، وأحسَّ بوطـــأة الكبر وضعف البصر ، وبذا تتناغم أداة النداء مع مقصوده من التقريب والاستمالة وتحريك المشاعر والنفوس للإقبال على الاستماع لما يأتى بعد النداء ، كما تنسجم أداة النداء مع حال الضعف والوهن وقصر النَّفَس التى يعيشها الشاعر بعدما اسنّ

ورابه بصره ، وبذا تتناغى همزة النداء – وهي صوت قصير – مع مقصود الشاعر وحاله .

والمنادى " بنيَّ " مضاف إلى ياء المتكلم لتأكيد المعانى المقصودة من النداء ، ولإبراز إيناسه بأبنائه ، وهذا أدعى للإقبال .

وبعد هذا النداء المحرك للمشاعر والمعبر عن ترقُّب نفوس بنيه لما يأتى بعدُ ، يأخذ في إخبارهم بحاله حين تقدم عُمره ورابه بصره ، ومن ثم أحسَّ من نفسه بفضل رأى وتجربة أكسبته إياهما الأيام من موعظة حسنة ومأثرة بليغة ، فيقول لهم : " إنى قد كبرت ، ورابنى بصرى ، وفيَّ لمصلح مستمتع " ، وفصل الخبر عن الإنشاء (النداء) لما بينهما من الاختلاف والتباين ، والفصل لا يوهم خلاف المراد ، فسبب الفصل كمال الانقطاع بلا إبهام بين جملة " أبنيَّ " وجملة " إنِّى كبرت " .

والاختلاف والتباين هنا في البنية والصياغة اللفظية ، أما المعنى فمترابط متكامل بين الجملتين ، حيث إن جملة النداء " أبنيَّ " ممهدة لجملة الخبر " إنى كبرت " ومشوقة لها ، وجملة الخبر ناطقة بمقصود النداء وغايته .

وعطف جملتى : (ورابنى بصرى ، وفيَّ لمصلح مستمتع) على جملة : (إنى قد كبرت) لاتفاقهما معها في الخبرية لفظا ومعنى، فبينهما التوسط بين الكمالين ، والمقصود من العطف إشراك المعطوف للمعطوف عليه في المعنى المراد من الإخبار ، والجمع بين الجمل الثلاث لتأكيد عدة حقائق قصد الشاعر إلى تقريرها في نفوس بنيه لتكون داعية الإقبال على وصاياه .

فقوله : " إنى قد كبرت " إخبار عن كبر سنه وإنباءٌ عن وهنه وضعفه المهيمن على جسده المتعمق في إحساسه وشعوره ، وقد اكتسى الخبر ثوب التأكيد بأداتيه " إن " و " قد " ؛ لينقل عميق إحساس الشاعر بكبر سنه ، وبذا

ينسجم القول مع الحال وتتناغم الصياغة مع الشعور بالمعنى لتنقله كما أحسه الشاعر .

واقتران " إنَّ " بياء المتكلم ، ودخول " قد " على الفعل الماضى يدعم مقصوده في زيادة تأكيد المعنى المراد وتقريره وتحقيقه ، ومن ثم نقله إلى بنيه مؤكدًا كما أحسته نفسه .

فالتأكيد هنا يعود غلى حال المتكلم في عمق إحساسه بالمعنى ، ورغبته في نقله غلى المخاطبين كما أحسه ، وذلك بقصد تقوية مضمون الكلام عندهم وتقريره في نفوسهم ، وإن كانوا غير منكرين له (١) .

وقوله : " ورابنى بصرى " معطوف على الخبر المؤكد قبله ، فيشاركه في التلبس بالتأكيد والوقوع تحت ظلاله ، والتعبير كناية عن ضعف حاسة الرؤية عنده ، يقال : رابنى فلان يريبنى ، إذا رأيت منه ما يريبك وتكرهه ، ورابنى الشىء إذا تيقنت منه الريبة ، وهى الشك والظنَّة ، وأرابنى : إذا شككت فيه (٢) .

والبصر : حِسُّ العين ، أو حاسة الرؤية (٣) .

واصطفاء التعبير بالفعل (رابنى) لإفادة تيقنه الريبة من بصره ، وأنه لا يسعفه فى رؤية المبصرات ؛ وذلك لضعفه بسبب تقدّم عمره وكبره الذى قرره فى الجملة السابقة ، وخص حاسة البصر بالذكر لأهميتها وشدة ارتباطها بالسنّ قوة وضعفًا ، ولأنها حين تضعف تعيق الحركة ولا تمكنه من الاتصال بالناس ، وقد كان ذا منزلة ومكانة فيهم !

---

(١) ينظر : خصائص التراكيب ، د / محمد أبو موسى ص ٦٠ ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثالثة .
(٢) ينظر : لسان العرب (ريب) ١ / ٤٤٢ ، ط : دار الفكر – بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
(٣) لسان العرب (بصر) ٤ / ٦٤ .

وبعد أن أعلمهم ما فى نفسه من الضعف والوهن فى الجملتين الخبريتين السابقتين ، قصد إلى تبيان حسن رأيه وتقرير رجاحة عقله وذلك فى الجملة الثالثة : (وفيّ لمصلح مستمتع) وهى معطوفة على ما سبقها لبيان ما يستمتع به من رجاحة عقل، وفضل رأى وتجربة يفيد منها كل مصلح قابل منه، يسعى للاستضاءة برأيه، والاستمتاع بحُسن عقله، وبالغ حكمته .

وتأمل معى الدقة والذكاء البيانى المبدع فى صياغة هذه الجملة وبنائها اللغوى بصيغة العموم ، مع أن ابناءه هم المقصودون بها ، كما يشعر بذلك النداء فى صدر البيت ، ولكنه لم يخصهم فيها بالخطاب ، بل بناها على صيغة العموم ليقرر أنه رغم ضعف نفسه وكبر سنه فإنه يملك من الخبرة وحسن الرأى والحكمة التى يفيد منها القابل منه (المصلح) وهو كل من استصلحه فاستمتع بعقله ورأيه [١] ، وبذا يكون قد استثار مشاعر أبنائه، وحرك عقولهم، وأجَّجَ عواطفهم بأمرين:

أحدهما – حين أعلمهم ما في نفسه من الضعف.

والآخر : حين أخبرهم بما عنده من فضل رأى وتجربة أحبَّ أنْ يشاركوه فيها .

وفى انتقائه لحرف الجر (فى) ودخوله على ياء المتكلم دلالة على قوة تمكن هذا الوصف (مستمتع) من نفسه ، وشدة تلبسه بها كتلبس الظرف من مظروفه .

وفى تقديم الجار والمجرور (وفى) الواقع خبرًا على المبتدأ (مستمتع) إشارة إلى حرصه على تأكيد المعنى المراد ، وإبراز شدة العناية والاهتمام به كى يترسخ فى نفوس أبنائه كما رسخ فى نفسه .

---

(١) ينظر : المفضليات ص ١٤٥ .

ومما يلفت الانتباه ويستوجب التأمل فى صياغة بيت المطلع :

أولاً – تكرار التعبير بياء المتكلم خمس مرات : (أبنيَّ – إنى – رابنى – بصرى – وفيَّ) ، وفى هذا دلالة على رغبته الحثيثة فى تقرير المعنى وتمكينه فى نفوس بنية الشباب الذين قد يغفلون عن السعى للإفادة من خبرة الكبار وتجاربهم ، وإشارة إلى تصاعد انفعالات الشاعر وقوة عاطفته وعميق إحساسه بمعانيه وشدة اعتنائه بنفسه – رغم ضعفها لكبر سنه – إلا أنها تملك من العقل والحكمة ما يجعله يعتز بها ويفخر بما قدمته ، وهو يلحّ على هذا المعنى ويكرره فى أكثر من موضع فى القصيدة ، و " التكرار " فى حقيقته إلحاحٌ على جهةٍ هامةٍ فى العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها " [١] .

ثانيـاً : التنكير فى (لمصلح) يفيد العموم ، واقترانه بلام الجر التى تفيد الاختصاص ، والتنكير فى (مستمتع) يفيد التعظيم ، وقد قصد من إفادة هذه المعانى الإشارة إلى اعتزازه بحُسن رأيه ورجاحة عقله، واهتمامه بكل من يقبل إليه ويقبل منه بقصد الإصلاح والاستمتاع بعقله ورأيه ، وفى ذلك من تحريك وتهييج مشاعر أبنائه ما فيه .

ثالثاً : التنوع فى صياغة جمل الإخبار بما يتناسب مع طبيعة المعانى ويتساوق مع المقصود فى كل جملة ؛ فحين أراد إعلام بنيه بما فى نفسه من الضعف بسبب الكبر وضعف البصر اختار التعبير بالجملة الفعلية بصيغة الفعل الماضى ليعبر عن حدث قد وقع بالفعل وأصبح واقعًا محققًا مستقرًّا (إنى قد كبرت ورابنى بصرى) ، وحين قصد إلى الإفصاح عن رجاحة

---

(١) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة ص ٢٤٢ ، منشورات مكتبة النهضة – مصر ، ط الثالثة ١٩٦٧ م .

عقله وحُسن رأيه اصطفى التعبير بالجملة الاسمية (وفيَّ لمصلح مستمتع)، وصاغها بحكمة وإحكام؛ ليبرز المعنى المتناغم مع سياق التوجيه والنصح ، وهو مقصوده الأهم فى القصيدة .

فكم كان الشاعر رائعًا فى اصطفاء التعبير بكلمتى (مصلح) و (مستمتع) بصيغة الاسم المشتق ؛ للدلالة على رسوخ وصف الإمتاع العقلى فى نفسه التى ترسل إشعاعاته لكل مقبل قابل منه راغب فى الاستمتاع برجاحة عقله ، والإفادة من حُسن رأيه ، والاقتباس من فيض تجربته وحكمته .

رابعًا : المزج بين أسلوبى الخبر والإنشاء للإفادة من عطاءات كل أسلوب منهما، فصدَّر بيته بالنداء (أبنيَّ) المحرك للمشاعر الملهب للعواطف ، ثم ثنى بالخبر فى ثلاث جمل متوالية مترابطة بواو العطف التى ألفت بينها وجمعتها فى الدلالة على مقصوده وإبراز غرضه المُؤَم .

والمزج بين الخبر والإنشاء يشى بطبيعة المعانى فى القصيدة والتى تبدو فيها العاطفة الأبوية القوية الجياشة ممزوجة بالعقل والحكمة والخبرة ، وهذان يمثلان عصب كل موعظة بليغة وجوهر كل وصية معجبة وتوجيه مؤثر ، فأسلوب الإنشاء يعتنى بإبراز المعانى النابعة من داخل النفس المفعمة بالمشاعر والأحاسيس والانفعالات ، أما أسلوب الخبر فإنه يصور المعانى الواقعة إثباتًا أو نفيًا مستعينًا بعقل ينيرها وفكر يرتبها وينظمها بعد تأمل وتدبر .

وهكذا تبرز قدرة الشاعر فى المزج بين المعانى والعمل على تلاقيها وائتلافها، وتصويرها فى بناء الغويّ محكم النسج والتأليف تتناغى فيه الأساليب ، وتلتقى فيه مسالك البيان لتبدع لنا لوحة أدبية متناغمة الألوان معجبة للناظر المتأمل المدقق .

ولما أعلمهم فى بيت المطلع ما فى نفسه من الضعف وكبر السن المؤذن بدنو الأجل ، فقد رتب على ذلك وفرَّع منه إخبارهم بهلكه وموته فقال رابطًا بفاء الترتيب والتفريع :

فَلَـــئِنْ هَلَكْـــتُ لقَـــدْ بَنَيْـــتُ مَسَـــاعِيًا

تَبْقَـــى لكـــمْ منهـــا مَـــآثِرُ أَرْبَـــعُ

ذِكْـــرٌ إذا ذُكِـــرَ الكِـــرَامُ يَـــزِينُكمْ

ووِرَاثَـــةُ الحَسَـــبِ المُقَـــدَّمِ تَنْفَـــعُ

ومَقَـــامُ أَيـــامٍ لَهُـــنَّ فَضِـــيلةٌ

عنـــدَ الحِفِيظَـــةِ والمَجـــامِعُ تَجْمَـــعُ

ولُهًـــى مِـــن الكَسْـــبِ الَّـــذِي يُغْنِـــيكُمُ

يومًـــا إذا احْتصَـــرَ النُّفُـــوسَ المَطْمَـــعُ

ونَصِـــيحَةٌ في الصَّـــدْرِ صَـــادِرَةٌ لكـــم

مـــا دُمْـــتُ أُبْصِـــرُ في الرِّجـــالِ وأَسْـــمَعُ

ولعل المقصود من عطف هذه الأبيات بالفاء على بيت المطلع هـو بيـان شدة الترابط وقوة الصلة بين المعطوف والمعطـوف عليـه ، فمـا بعـد الفـاء (المعطوف) من إخباره عن موته وهلكه وبيانه عن مآثره ومكارمه التى يتركهـا لأبنائه يرتبط معنويًّا ارتباط ترتب وتفرع عن إخباره بكبر سنه وضعف بصـره ، ورجاحة عقله في بيت المطلع (المعطوف عليه) .

وقد بنى الجملة المعطوفة بالفاء على أسـلوب الشـرط المؤكـد بـاللام الموطئة للقسم (فلئن هلكت) وجوابه المؤكد باللام (وقد) ، (لقد بنيـت مسـاعيًا)

لينقل عمق إحساسه بمعانيه ورغبته الحثيثة في استمالة أبنائه حتى يتقبلوا وصيته ونصائحه .

فالسياق يكشف عن عاطفة قوية يسيطر عليها شعور بالوهن وقرب الأجل، ويعكس رغبة حثيثة في توجيه أبنائه وحضهم على ما يفيدهم وينفعهم ، ولذلك جاءت عبارته في الموضعين مؤكدة بأكثر من مؤكد ، ونوع في أساليب الإخبار والتوكيد ، مما يبرز قدرة على البيان المبدع القائم على تنوع الأساليب وانتقاء الألفاظ والتراكيب الكاشفة عن معانيه الناقلة لمشاعره وعاطفته الجياشة ، فالأخبار في بيت المطلع (المعطوف عليه) تقرر حقائق واقعة مستقرة في وجدانه نابعة من أعماق نفسه ، فناسب فيها التأكيد بـ (إن) و (قد) والفعل الماضى ، مع تكرار ياء المتكلم ، واصطفاء التعبير بالاسم المشتق (أبنيَّ إنى قد كبرت ورابنى بصرى وفيَّ لمصلح مستمتع) ، أما الخبر الواقع بعد الفاء (المعطوف) فإنه يعبر عن حقيقة ثابتة يترقبها الشاعر ، وحدث جلل سبقه عمل جاد في بناء المكارم وتحصيل المناقب والمآثر التى تبقى لأبنائه بعد موته ، فناسب التعبير عنه بأسلوب الشرط المصدّر باللام الموطئة للقسم المنبئة عن شدة الارتباط بين الشرط وجوابه ، الذى جاء بدوره مؤكدًا بلام القسم ، وقد الداخلة على الفعل الماضى : فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا ..... ، فقوله (هلكت) فعل الشرط ، ومعناه : متُّ ، والتعبير بفعل الهلك دون الموت فيه إشارة إلى عظم المصاب وفداحة الخسارة بفقده ، وفى ذلك دلالة على علو منزلة الميت ، وقد استخدم شاعرنا هذا الفعل في رثاء قيس بن عاصم المنقرى سيد تميم ، حين قال :

عليك سلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصمٍ

ورحمتُه ما شاءَ أن يترحَّما

تحيـــــةَ مـــــن ألبســـــتَه منـــــكَ نعمـــــةً

إذا زارَعـــــن شَـــــحْطٍ[١] بـــــلادَك سَـــــلَّمَا

فمـــــا كـــــان قـــــيسٌ هَلْكُـــــه هَلْـــــكُ واحـــــدٍ

ولكنَّـــــــه بنيـــــــانُ قـــــــومٍ تهـــــــدَّما

وقد قال هذه الأبيات حين ذهب إليه ليصالحه بعد جفوة وقعت بينهما ، فوجده قد مات [٢] .

وقد شغلت هذه الأبيات الثلاثة الأدباء والشعراء فقالوا في مطلعها : عليك سلام الله قيس بن عاصم ... إنها تحية الموتى [٣] . وقال فى البيت الثالث : إنه أرثى بيت قالته العرب وهو قائم بنفسه ما له نظير فى الجاهلية ولا الإسلام [٤] .

ولما كان هلْك قيس قد وقع بالفعل جاء التعبير بـــ (كان) فى قوله : فمـــا كان قيس هلكه هلك واحد ، وذلك لقوة دلالة (كان) على المضى لتمحضه له [٥] ، والمعنى :لم يكن موت قيس موت شخص عادىّ ولكنه كان فاجعة كبيـــرة تركـــت أثرًا قويًّا على قومه .

---

(١)قوله : عن شحطٍ ، أراد بعدٍ شحط أي بعد. يقال: شحط يشحط شحطاً وشحوطاً. وكأنه أشار به إلى بعد المزار والعهد جميعاً.(شرح ديوان الحماسة للمرزوقي١/٥٦٠ تحقق: غريد الشيخ- دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- طبعة أولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).

(٢) ينظر : الأغانى ١٨ / ١٦٣ .

(٣) ديوان المعانى ٢ / ٢١٦ .

(٤)ينظر: الأغانى ١٨ / ١٦٣ المصون في الأدب- أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري (المتوفى: ٣٨٢هـ) ص ١٦

تحقيق: عبد السلام محمد هارون- الناشر: مطبعة حكومة الكويت- الطبعة: الثانية، ١٩٨٤ م .

(٥) المطول لسعد الدين التفتازانى ص ١٥٨ ، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ .

أما موت الشاعر فلم يقع بعد ، ومن ثم جاء تعبيره عنه بأسلوب الشرط بأداته (إن) : (فلئن هلكت) ، ومعلوم أن (إنْ) و (إذا) للشرط فى الاستقبال ، وأن أصل (إنْ) عدم الجزم بوقوع الشرط فى اعتقاد المتكلم ، وأصل (إذا) الجزم بوقوعه فى اعتقاده [١] .

فدخول (إن) على الفعل الماضى فى قوله (فلئن هلكت) لأن معناه المستقبل، والمعنى : فلئن أهلك .

واصطفاء التعبير بصيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوع الفعل فى ذاته، فالموت حقيقة ثابتة فى ذاتها ، راسخة فى اعتقاد المتكلم (الشاعر) .

وظاهر الكلام هنا يقتضى التعبير بـ (إذا) التى تستعمل فى الفعل يعتقده المتكلم ويجزم بوقوعه ، ولكن الشاعر آثر التعبير بـ (إنْ) لينقل المعنى كما أحسَّته نفسه فى هذا المقام ، وبيان ذلك : أن دخول (إنْ) على الأمر المقطوع به هنا يشير إلى نزوع النفس البشرية وشدة تعلقها بالحياة ، وكراهيتها للموت ، فتعلُّق نفسه بالحياة جعله يبدو كمن لا يجزم بوقوع الموت ، وليس فى ذلك تكلف أو استغراب فى مجال المشاعر الإنسانية ؛ لأن الكلام ينقل مشاعر المتكلم وإحساسه بالأشياء ، فليس المهم التعبير عن الأشياء كما هى فى الواقع ، وإنما المهم هو إبراز حس المتكلم بها ، " فليست التعبيرات فى الحقيقة إلا مظهرًا للرؤية النفسية وانعكاسًا للاستجابات الداخلية ، وهى فى كثير من صورها تتخطى حدود الواقع وجموده ، فالذى يقول : إن متُّ كان كذا ، يكره أن يموت ، ويتمنى ألا يكون ، ومن حق النفس أن ترفض الواقع " [٢] ما دام ذلك فى مقام نقل المشاعر وتجسيد نوازع النفس فى رؤيتها للأشياء .

---

(١) ينظر : المطول ص ١٥٤ .

(٢) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ص ٢٦٨ – مكتبة وهبة ، الطبعة الثالثة .

ويمكن أن يكون انشغال الشاعر بجواب الشرط جعله يذهل عن حقيقة فعل الشرط ، والجواب هنا قوله : (لقد بنيت مساعيًا) ، فشدة تعلقه بالمساعى والمكارم التى بناها فى حياته ، وشدة حرصه على تبيانها وتجليتها ؛ لأنه انعكس على إحساسه بالموت فجعله كأنه غير متوقع ، وذلك كمن يقول : إن زالت الشمس انتهينا من العناء الذى نحن فيه، أو التقينا بالأحبة، أو هاجمنا الأعداء، أو غير ذلك مما له وقع خاص حُبًّا أو بُغضًا، فانعكس هذا على الإحساس بالزوال فجعله كأنه غير متوقع(١).

المهم أن انشغال الشاعر بالجواب المعبر عن سعيه فى بناء المكارم وتحصيل المناقب ، كان هو الدافع وراء تعبيره بـ (إنْ) الشرطية ، ودخولها على الفعل المحقق المجزوم بوقوعه ، ومن ثم بدت نفسه وكأنها كارهة للموت أو ذاهلة عنه ، وهذا ينسجم مع سياق تهيئة بنيه لتقبل نصائحه والإفادة منها ، يؤكد ذلك حرصه على تقرير الجواب وتوثيقه وتحقيقه بلام القسم و(قد) الداخلة على الفعل الماضى (لقد بنيت) .

والتعبير بالفعل (بنيت) وإسناده لتاء المتكلم (الفاعل) لإفادة اعتزازه بنفسه وسعيه الدؤوب وعمله الجاد المتواصل فى سبيل تحصيل المكارم .

وقد صور هذا السعى فى تحصيل المكارم وشبهه بعمل البنَّاء الذى يفتن ويكد ويعمل جاهدًا فى سبيل إنشاء بناءٍ معجب يروق لأعين الناظرين ، ويكون مثار حديث المتكلمين ، ففى التعبير استعارة تبعية فى الفعل (بنيت) ، حيث شبه التحصيل بالبناء بجامع السعى بجد وعناء ، واشتق من البناء (بنيت) على سبيل الاستعارة التبعية فى الفعل ، ويمكن أن تكون الاستعارة مكنية بتشبيه المكارم ببناء عظيم بجامع التفخيم والتعظيم ، وحذف المشبه به ورمز له بلازمه وهو

(١) ينظر : خصائص التراكيب ، د / محمد أبو موسى ص ٢٦٨ .

الفعل (بنيت) ويكون إثبات البناء ووقوعه على المكارم تخييل .

المهم أن الاستعارة هنا تصور عمله الجاد المتواصل وتحكى سعيه الواعى طوال حياته فى سبيل تحصيل المكارم وتحقيق الفضائل ، والتى عبر عنها بقوله : (مساعيًا) لتحكى حركة سعيه وطبيعة عمله فى سبيل تحقيق ما يعلى قدره، وينفع ولده من مكارم كثيرة نافعة عظيمة القدر ، تبعث على الفخر والاعتزاز ، وتكون مثار حديث الناس جيلاً بعد جيل .

فالتنكير فى (مساعيًا) يفيد التفخيم والتعظيم والتكثير وهى معانٍ متلاقية متلاحمة فى هذا السياق ؛ بدليل قوله : (تبقى لكم منها مآثر أربع) فهذه الجملة صفة لـ (مساعيًا) تفيد عظم قدرها وفخامة شأنها ، وتنبئ عن كثرتها ، كما يدل على ذلك التعبير بالفعل (تبقى) ، وبحرف الجر (من) الداخل على الضمير (ها) العائد على (مساعيًا) أى : تبقى لكم بعدى من هذه المساعى العظيمة والمكارم الكثيرة مآثر أربع .

ونلحظ فى هذه الجملة تقديم أحد متعلقي الفعل (لكم) على الآخر (منها) ؛ وذلك بقصد إبراز مزيد اعتنائه واهتمامه ببنيه المخاطبين، ولفت الانتباه إلى أنهم المقصودون من بيان مآثره الباقية .

والمقصد من ذلك تحريك المشاعر والحض على فعل المكارم والتمسك بالفضائل ، والبعد عن المساوئ والرذائل ، وهذه المعانى هى محور نصائحه ووصاياه التى سيذكرها بعد .

ولعلنا نلحظ أن هذا البيان من الشاعر فيه إبداع فى القول ينبئ عن فطنة فى سياسة النفوس وإعدادها لتحلق في سماء المكارم والمناقب .

والمآثر : جمع مأثُرة ، وهى ما يتحدث به من الأخلاق [١] .

والأثر : بقية الشيء ، أو الخبر ، والجمع : آثار .

أثرتُ الحديثَ آثُرُه إذا ذكرته عن غيرك ، والمأثَرةُ والمأثُرة : المكرمة ؛ لأنها تؤثر ، أى تذكر ويأثُرُها قرنٌ عن قرنٍ يتحدثون بها [٢] .

فالتعبير بهذه الكلمة ينبئ عن عظم قدر هذه المآثر والمكارم الباقية لهم بعد موته أثرًا خالدًا يظل الناس يذكرونه ويتحدثون به . وبذا تكون ألفاظ الشاعر وتراكيبه ناطقة بمعانيه معبرة عن مشاعره مبرزة مقاصده .

وفى التعبير بقوله : (مآثر أربع) إبهام قبل البيان يقصد به التشويق والتفخيم ، وتحريك النفوس لتترقب وتتطلع إلى بيان المبهم ، فإذا تحقق لها ذلك ارتوت بعد ظمأ وحظيت بلذة العلم بعد شوق إليه .

ويطلق البلاغيون على هذا اللون من البيان بعد الإبهام اسم " التوشيع " وهو فى اللغة : لف القطن المندوف [٣] .

وكأن البيان بعد الإبهام الحاصل فى التوشيع بمثابة لف القطن بعد ندفه .

وقد عرفه الخطيب – رحمه الله – بقوله : " وهو أن يؤتى فى عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر " [٤] ، كما فى قول النبىﷺ : " الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنبة " [٥] .

---

(١) المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٢٩٤ .

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة(أثر) ٤ / ٥ – ٧ .

(٣) لسان العرب، مادة (وشع) ٣٦٤/٨.

(٤) الإيضاح للخطيب القزوينى ص١٩٧ .

(٥) صحيح مسلم ٤– باب أن جميع ما ينبذ مما يتخذ من النخل والعنب يسمى خمرا (الحديث١٩٨٥) ١٥٧٣/٣ .

فقد أتى فى آخر الكلام بمثنى (الشجرتين) ، وفسره باسمين أحدهما معطوف على الآخر (النخلة والعنبة) [١] .

ونلحظ أن الخطيب – رحمه الله – حدد موضع التوشيع (فى عجز الكلام)، وصورته فى الكلام (بمثنى مفسر باسمين ...) ، وفى هذا التحديد تضييق لمتسع لا يأباه الكلام ، وهذا ما تنبه إليه أصحاب الشروح بعده ، فقد أجاز البهاء السبكى وابن يعقوب المغربى – رحمهما الله – وقوع التوشيع فى أول الكلام أو فى وسطه أو فى آخره ، ووروده بصيغة المثنى المفسر باسمين ، أو بصيغة الجمع المفسر بأسماء قد عُطف على الأول ما زاد عليه . يقول السبكى : " ولك أن تقول كل مثنى أو جمع ذُكر ثم فُصل سواء أكان فى أول الكلام أو آخره يحصل به الإيضاح بعد الإبهام ، فما الذى خص آخر الكلام دون أوله وأوسطه ؟ وما الذى خص المثنى دون المجموع ؟ وهل هذا غير اللف والنشر الذى سيأتى فى البديع؟"[٢] .

وهذا الكلام دقيق فى موضعه ينبئ عن وعى بطبيعة الكلام وتأليفه وترابط عباراته ، كما يشير إلى دقائق الألوان البلاغية وتداخلها وترابطها فى الكلام ، وهذا لا يعنى اتهام الخطيب – رحمه الله – بالتقصير فى ذلك ، ولكنه فى تعريفه للتوشيع عبر عن الشائع والأكثر وقوعًا فى كلام البلغاء .

يقول ابن يعقوب المغربى – رحمه الله – : " وكأنه روعى أنه أكثر ما يقع فى تراكيب البلغاء " [٣] أى أن المصنف راعى ذلك .

---

(١) هذا ما كان شائعًا في عصر النبوة ، حيث تؤخذ الخمر من التمر والعنب ، وقد تنوعت بعد ذلك منابع الخمر والمسكرات وتعددت مصادرها ! .

(٢) عروس الأفراح للسبكى ٣ / ٢١٦ (ضمن شروح التلخيص) .

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي٣/٣١٦. .

المهم أن فيما قاله السبكى وابن يعقوب توسيعًا لباب التوشيع بوصفه أحد صور البيان بعد الإبهام ، وبذلك يدخل قول عبدة بن الطبيب في التوشيع والبيان بعد الإبهام؛ حيث أتى في آخر البيت بجمع (مآثر أربع) مفسر فى الأبيات التالية بأسماء عُطف على الأول فيها ما زاد عليه ، حيث قال مبينًا الإبهام الوارد فى آخر البيت السابق :

ذِكْـــرٌ إذا ذُكِـــرَ الكِـــرَامُ يَـــزِينُكمْ
ووِرَاثَـــةُ الحَسَـــبِ المُقَـــدَّمِ تَنْفَـــعُ
ومَقَـــامُ أَيـــامٍ لَهُـــنَّ فَضِـــيلةٌ
عنـــدَ الحِفِيظَـــةِ والمَجـــامِعُ تَجْمَـــعُ
ولُهًـــى مِـــن الكَسْـــبِ الَّـــذِي يُغْنِـــيكُمُ
يومًـــا إذا احْتَصَـــرَ النُّفُـــوسَ المَطْمَـــعُ
ونَصِـــيحَةٌ في الصَّـــدْرِ صَـــادِرَةٌ لكـــم
مـــا دُمْـــتُ أُبْصِـــرُ في الرِّجـــالِ وأَسْـــمَعُ [1]

الذكر : الشرف والصيت . المقام : بفتح الميم : مقام ساعة في خطبة أو خصومة أو نحو ذلك ، الحفيظة : الغضب ، اللهـى : بضـم الـلام : العطايـا ، واحدتها لهوة ، وأصلها الحفنة من الطعام تطرح في الرّحى [2] .

ويدرك المتأمل في هذه الأبيات أن هذا البيان بعد الإبهام يحقق للشـاعر عدة أغراض :

---

(١) المفضليات ص ١٤٦ .

(٢) لسان العرب مواد (ذكر – قام – حفظ – لهى) ، وينظر المفضليات ص ١٤٦ .

أولها : إبراز المعنى في صورتين مختلفتين ، ليقع العلم بالمعنى مرتين : إحداهما مبهمة ، والأخرى موضحة مبينة ، وقد قالوا : " علمان خير من علم واحد " (١) .

ثانيها : تمكن المعنى في نفوس المخاطبين فضل تمكُّن .

ثالثها : تحقيق كمال لذة العلم بالمعنى ، عن طريق البيان الكاشف بعد الترقب والتشوق الذى أحدثه الإبهام السابق .

رابعها : تفخيم المبيِّن وتعظيمه (٢) ، والذى عبَّر عنه بقوله : (مآثر أربع) بلفظ الجمع، وبصيغة النكرة الموصوفة بالعدد (أربع) ، دون التعبير بالإضافة (أربع مآثر) ؛ لأن تقديم المعدود ونعته بالعدد أضفى عليه مهابة وفخامة وعظمًا ، وبذا تكتسب المآثر التفخيم والتعظيم بأكثر من طريق : لفظ جمع التكسير، وصيغة التنكير، ووقوع العدد نعتًا له، والإبهام المبيِّن بما بعده .

وقد قصد الشاعر إلى تحقيق هذه الأغراض مجتمعة بتقرير ما أراده في نفوس بنيه، لينشطوا ويقبلوا على نصائحه .

وقد اعتمد الشاعر في بيانه الكاشف الموضح من خلال الأبيات السابقة على وسائل بيانية معبرة عن مقصوده وغرضه المؤمّ ؛ حيث فصَّل المآثر والمناقب التى تبقى لأبنائه بعد موته وعدَّدَها عن طريق العطف بحرف " الواو " ؛ وذلك ليجمعها تحت حكم واحد وليشركها في كونها بيانًا لمآثره ومناقبه الباقية ، والتى هى جزء من مكارمه التى سعى في بنائها طوال حياته ، وكأنها حبات عقد من لؤلؤ جمعتها الواو لتبرز جمالها وأثرها الباقى فيهم .

---

(١) المطول ص ٢٩١ .

(٢) ينظر : شروح التلخيص ٣ / ٢١٠ .

وقد اصطفى للتعبير عنها صيغة التنكير ليبرز عظم وفخامة كل مأثرة منها، ثم ربط بينها بواو العطف التى تستعمل للجمع المطلق والتشريك في الحكم، وبذا تكتسب التعظيم والتفخيم من بنائها وصياغتها ، ومن تركيبها وتعاطفها :

ذكرٌ إذا ذُكر الكرام يزينكم ...

ومقام أيام لهنّ فضيلة ....

ولهى من الكسب الذى يغنيكم ....

ونصيحة من الصدر صادرة لكم ....

فقد قصد الشاعر إلى إشراكها في البيان عن مآثره والتفصيل لمناقبه ، ونلحظ أن المأثرة الثانية (ومقام أيام) جاءت مضافة إلى " أيام " ، فأكسبتها الإضافة بيانًا كاشفًا عن وقت حدوثها في أيام كثيرة متنوعة ؛ لتضيف إلى التفخيم والتعظيم معنى التكثير .

والتقدير : ومقامٌ في أيامٍ ، أى كثيرة عظيمة الشأن .

وتأمل معى دقة الشاعر في ترتيب هذه المآثر في الذكر ، والتى تعكس وعيًا بطبيعة النفوس ، وإدراكًا لعادات المجتمع العربى في ترتيب الأولويات ؛ حيث راعى في هذا الترتيب طبيعة النفس العربية التى دأبت على التعلق بالصيت والشرف والمفاخرة بالحسب " ذكر إذا ذكر الكرام .. " ، ثم الارتباط بالكلمة والمقام الحسن في الخطب والمنافرات (ومقام أيام) ، ثم بالعطايا والأموال المكتسبة التى يحصلها المرء ليحيا بها كريمًا ثم يتركها لأبنائه ذخرًا ينفعهم بعد موته (ولهًى من الكسب الذى يغنيكم) ، أما تأخير ذكر النصيحة (ونصيحة في الصدر صادرة لكم) فهدفه ربط أبيات المقدمة الستة بالأبيات التالية المعبرة عن غرضه الرئيس في القصيدة وهو الوصية والنصيحة لأبنائه ، وهذا يبرز عنايته

بترابط أجزاء النص وتماسكها ، وينبئ عن قدرته في الانتقال مما ابتدأ به الكلام إلى الغرض المقصود ، مع الملاءمة والمناسبة بينهما ، ويطلق البلاغيون على ذلك اسم " التخلص " [١] ، وهو أحد المواضع الثلاثة [٢] التى ينبغى على المتكلم التأنق فيها .

والتعبير عن المآثر بصيغة التنكير مكَّن الشاعر من الإتيان بقيود كاشفة عن دلالتها ، وأوصاف مبينة لوظيفتها فى السياق ، وبذا يتم له مقصوده من الكلام .

تأمل كيف قيد المأثرة الأولى بقوله : " ذكر إذا ذكر الكرام يزينكم " أي ذكر حسن وثناء جميل يجرى على ألسنة الناس حين يذكر الكرام ، فـ (إذا) هنا ظرفية بمعنى وقت أو حين ولا تحتاج إلى جواب لخروجها عن الشرطية [٣] ، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) [الشورى : ٣٩]، أى حين يصيبهم البغى ينتصرون .

وجملة (يزينكم) صفة للنكرة (ذكرٌ) ، تبرز ثمرة هذا الذكر وفائدته ، وقد فصل بين الموصوف وصفته بجملة الظرف (إذا ذكر الكرام) لبيان عظم منزلة الذكر وتأكيد فائدته ونفعه لأبنائه ، أى ذكرٌ يورثكم شرفًا وزينة وفخرًا ، ويعود

---

(١) التخلص هو : الانتقال مما شُبب الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما ، ومعنى شُبِّب : أى ابتُدئ الكلام به (ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني ص٤٤٢).

(٢) هى : الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء .

(٣) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي- أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: ٧٤٩هـ ـ) ص٣٧٠ - تحقيق: د فخر الدين قباوة - الأستاذ محمد نديم فاضل- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ، ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢ / ١٠٦ ، تحقيق د / عبد اللطيف محمد الخطيب ، ط : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

عليكم بالنفع ؛ ولذلك استأنف بالواو قائلاً : " ووراثة الحسب المقدّم تنفع " ليقرر أن الحسب والصيت الذى يكتسبه الآباء ينفع الأبناء ، وقد ساق الخبر مساق الأمر المعلوم الذى لا ينكر لشيوعه وعمومه ؛ ومن ثم خلا الخبر من التأكيد ، وحذف المفعول به في قوله : (تنفع) لإفادة التعميم مع الاختصار ، وذلك لكون المقام مقام افتخار ومبالغة في الوصف بالنفع المتحقق بوراثة الحسب المقدَّم ، فيكون ذلك المقام قرينة على إرادة العموم (١) .

وقد تكرر حذف المفعول به فى هذا السياق للغرض نفسه فى قوله : " والمجامع تجمع " ، وهو كناية عن الحشد عند الحروب ، حيث أفاد الحذف العموم والمبالغة فى الوصف بالجمع والحشد .

وقد كرر التقييد بظرف الزمان ، وبجملة الصفة للنكرة فى بيانه عن بقية المآثر فى الأبيات التالية ، يقول عن المأثرة الثانية :

ومَقَامُ أَيامٍ لَهُنَّ فَضِيلةٌ
عندَ الحفِيظَةِ والمَجامِعُ تَجْمَعُ

وإضافة " مقام " لـ " أيام " بيانية كاشفة عن حقيقة المضاف ، مبينة لعظم منزلته ومكانته ، وهو يقصد بذلك وقوفه خطيبًا فى الناس يحفزهم ويحشدهم فى تلك الأيام الكثيرة عظيمة الشأن ، فتنكير " أيام " يفيد الكثرة والتعظيم والتنويع كذلك ؛ لأنها أيام معينة عظيمة الشأن ، وقد زاد فى تأكيد عظم مقامه فى تلك الأيام حين وصفها بقوله : " لهن فضيلة " أى لهذه الأيام منزلة ومكانة عظيمة .

(١) ينظر : مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٢ / ١٤٠ ، ضمن شروح التلخيص .

وحين قيَّد المقام بالظرف فى قوله : " عند الحفيظة " أى عند الغضب .

فهو قيد للمقام يحدد وقته ، ويؤكد عظم منزلته .

ويقول عن المأثرة الثالثة :

ولُهًـــى مِـــن الكَسْـــبِ الَّـــذِي يُغْنِـــيكُمُ

يومًـــا إِذا احْتصَـــرَ النُّفُـــوسَ المَطْمَـــعُ

واللهى : العطايا ، وقيل : أفضل العطايا وأجزلها .

ويقال : إنه لمعطاء اللُّها إذا كان جوادًا يعطى الشيء الكثير ، والمفـرد : اللُّهوة واللُّهية .

قال النابغة :

عظـــام اللُّهـــا أولاد عـــذرةَ إنهـــم

لهـــاميمُ يســـتلهونها بالحنـــاجر[١]

فقوله : (عظام اللها) أى : عظام العطايا ، وقيل : أراد باللها الأمـوال ، والمعنى : أن أموالهم كثيرة ، وقد استلهوها أى استكثروا منها [٢] .

فالمقصود من قول عبدة :أنه ترك لهم أفضل العطايا وأجزلها ، وأعظـم الأموال التى اكتسبها وأكثرها .

فتنكير (لُهًى) لإفادة التعظيم والتكثير ، ومما يدعم معنى التكثيـر فيـه ،

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٩٨ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم- الطبعة الثالثـة دار المعـارف- مصر.

(٢) لسان العرب مادة (لها) ٢٦١/١٥.

رواية : وثُخنٍ من المال ، أى كثافة وكثرة [١] .

وتقييد اللُّهى بالجار والمجرور (من الكسب) لبيان حقيقة هذه العطايا، وكيفية تحصيل هذه الأموال الكثيرة بالكسب وبذل الجهد ، فـ (مِن) هنا بيانية كاشفة عن حقيقة متعلقها .

ووصف الكسب بالموصول وصلته : (الذى يغنيكم) لتأكيد عظم منزلة هذا الكسب بيان أثره المتمثل في تحقيق الغِنى لأبنائه وقت الحاجة ، وذلك حين يحتصر النفوس الطمع ، وهذا ما قرره في الشطر الثانى من البيت :

..... يومًا إِذا احْتصَرَ النُّفُوسَ المَطْمَعُ

فقوله (يومًا) متعلق بـ (يغنيكم) ، والتنكير فيه يفيد التنويع ، والتهويل ، وجملة (إذا احتصر النفوس المَطْمعُ) صفة لـ (يومًا) أو بدل منه ، و (إذا) ظرفية بمعنى حين أو وقت ، أى : هذا المال يغنيكم في يوم شديد عصيب حين يضيّق الطمع على النفوس ويسيطر عليها، فيغل الأيدي عن العطاء ، ويضيّق الصدور .

وقوله : (احتصر) من الحصر ، وهو : المنع والحبس وضيق الصدر يقال: أحصره العدوّ إذا ضيق عليه فحُصر ؛ أى ضاق صدره [٢] .

وكأن الطمع عدو يهجم على الإنسان فيضيِّق عليه الحصار ويغل يديه ويمنعه من الحركة ، ففى التعبير استعارة مكنية بتشبيه الطمع بالعدو في الحصر والتضييق ، وإثبات الحصر للطمع تخييل ، وهو قرينة المكنية .

وفى التعبير بالاستعارة تجسيد للمعانى، وإبراز للمعقول في صورة محسّة تؤثر في النفوس وترسخ المعنى المراد وتقويه .

---

(١) ينظر : المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٢٩٦ .

(٢) لسان العرب مادة (حصر) ٤ / ١٩٣ .

ورواية الأنبارى : (إذا احتضر النفوس ...) أى نزل بها ، حضرنى الهم واحتضرنى : نزل بى .

والرواية الأولى أقوى في الإبانة عن المقصود ، والدلالة عليه ؛ لما فيها من تجسيد المعنويات وإبرازها في صورة محسوسة ، ومن التخييل المحرك للنفوس والمشاعر .

والمطمع : يمكن أن يكون مصدرًا ميميًّا بمعنى الطمع ، وأن يكون اسم مفعول بمعنى الشىء الذى يطمع فيه ، والأول أعلق بالسياق ؛ لأن الطمع في الأصل : رجاءٌ في القلب قويٌّ للشىء [١] ، فهذه الجملة وصف كاشف لطبيعة هذا اليوم ، وما يحدث فيه من سيطرة الطمع على النفوس ، والمقصود من ذلك : تأكيد عظم هذه العطايا والأموال الكثيرة التى يتركها الشاعر لأبنائه بعد موته ، وبيان مكانة الكسب للأموال التى تكفى الإنسان وقت الشدة وتسد حاجته .

أما المأثرة الرابعة فقد عبر عنها بقوله :

ونَصِيحَةٌ في الصَّدْرِ صَادِرَةٌ لكم

مَا دُمْتُ أُبْصِرُ في الرِّجَالِ وأَسْمَعُ

وهو عطف على ما سبقه .

وتنكير (نصيحة) الإفادة التعظيم والتفخيم ، أى نصيحة ذات شأن عظيم وأثر بالغ ، وقد أكد عظم مكانتها وبالغ أثرها بعدة أمور :

أولها : الجار والمجرور (في الصدر) والذى يحدد المنبع والمصدر ؛ فهى مستقرة في نفسه نابعة من قلبه . والتعبير بالصدر عن القلب مجاز مرسل علاقته المحلية ، حيث أطلق لفظ المحل (الصدر) وأراد الحال فيه [٢] (القلب) ؛

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٤٢٥/٣ – ط أولى١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ط : دار الجيل – بيروت .
(٢) ينظر : بغية الإيضاح للشيخ / عبد المتعال الصعيدى ٣ / ٨٦ .

لأن الصدر محل للقلب يستقر فيه ، وفى تسمية الحالّ باسم محله إشارة إلى شدة الاعتناء به ، وتأكيد لعظم منزلته ومكانته .

وثانيها : وصف النصيحة بقوله : (صادرة لكم) أى : خارجة من قلبى لكم بقصد توجيهكم إلى ما ينفعكم . ففى تقييد صدورها بقوله ٠لكم) تقريب واستمالة وحثٌّ لهم على الإقبال والإصغاء إليه ليفيدوا من نصائحه .

ثالثها : الإشارة إلى زمن صدور نصيحته إليهم ، وذلك في قوله : (ما دمت أبصر في الرجال وأسمع) أى : مدة بقائى حيًّا بين الرجال، فالتعبير كناية عن حياة الشاعر وارتباط صدور النصيحة بها .

وفيه إشارة إلى عظم منزلته بين الرجال ومكانته فيهم ، وتأكيد لعظم مكانة حاستى السمع والبصر ، وخاصة حين يتصدر الإنسان للناس خطيبًا يحفز ويحشد ، وناصحًا يوجّه ويبصِّر ، كما كانت حياة شاعرنا .

وبين (الصدر) و (صادرة) جناس الاشتقاق يكسب التعبير تنغيمًا موسيقيًّا يترك أثرًا في النفوس، من شأنه ترسيخ المعنى وتدعيم المقصد من الكلام .

كما ينبئ عن ذلك تكرار حرف " الصاد " وهو من حروف الصفير التى يصحب النطق بها صوت يشبه الصفير ، وكأن الشاعر قصد إلى جذب مسامعهم وإصغاء آذانهم إليه ، واستمالة قلوبهم نحوه ؛ ليقبلوا عليه ويصغوا إلى نصائحه ووصاياه ، وبذا تتآزر الحروف والكلمات والتراكيب والأساليب في إبراز مقصود الشاعر .

وهكذا استطاع الشاعر من خلال مقدمة القصيدة أن يحشد كل أدواته البيانية ووسائله التعبيرية والتصويرية؛ لاستمالة أبنائه وتهيئة نفوسهم لتقبل ما يلقيه إليهم من وصايا .

المبحث الثاني

مسالكه البيانية في وصية أبنائه

بعد أن ختم الشاعر مقدمة قصيدته بذكر النصيحة الصادرة من قلبه لأبنائه خلص إلى نظم وصاياه التى تمثل الغرض الرئيس في قصيدته ، وبذا يكون قد انتقل مما ابتدأ به كلامه إلى غرضه ومقصوده ، مع مراعاة الملاءمة والمناسبة بينهما ، وهذا ما يطلق عليه البلاغيون : (التخلص) الذى هو أحد المواضع الثلاثة التى ينبغى على المتكلم شاعرًا كان أو كاتبًا أن يتأنق فيها ؛ حتى تكون أعذب لفظًا ، وأحسن سبكًا ، وأصح معنى [١] ، وذلك بأن يكون اللفظ فى غاية البعد من التنافر والثقل ، ويكون التركيب خاليًا من التعقيد اللفظى والمعنوى، وتكون المعانى مناسبة لألفاظها ، فيكتسى لكل معنى اللفظ اللائق به المعبر عنه ، وتتقارب الألفاظ فى الدقة والجزالة والوضوح والسلاسة .

يقول عبدة مخاطبًا أبناءه :

٧ - أُوصِيكُمُ بِتُقَى الإِلهِ فَإِنَّهُ
يُعْطِي الرَّغائِبِ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ

٨ - وبِبِرِّ وَالِدِكُمْ وطاعةِ أَمرِهِ
إِنَّ الأَبَرَّ مِنَ البَنِينِ الأَطْوَعُ

٩ - إِنَّ الكَبِيرَ إِذا عَصَاهُ أَهْلُهُ
ضَاقَتْ يَدَاهُ بِأَمرِهِ مَا يَصْنَعُ

(١) ينظر : شروح التلخيص ٤ / ٥٢٩ وما بعدها .

١٠ - وَدَعُـوا الضَّـغينَةَ لا تَكُـنْ مِـن شـأْنِكمْ

إِنَّ الضَّـــــغائنَ لِلْقَرَابَـــــةَ تُوضَـــــعُ

١١ - وَاعْصُـوا الَّـذِي يُزْجِـي النَّمَـائِمَ بيْـنَكم

مُتَنَصِّـــــحاً، ذَاكَ السِّـــــمامُ المُنْقَـــــعُ

١٢ - يُزْجِـــي عَقَارِبَـــهُ لِيَبْعَـــثَ بَيْـــنَكم

حَرْبـــاً كمـــا بَعَـــثَ العُـــرُوقَ الأَخْـــدَعُ

١٣ - حَـــرَّانَ لا يَشْـــفِي غَلِيـــلَ فُـــؤَادِهِ

عَسَـــلٌ بمـــاءٍ في الإِنَـــاءِ مُشَعْشَـــعُ

١٤ - لا تَـــأْمَنُوا قَوْمـــاً يَشِـــبُّ صَـــبِيُّهُمْ

بَـــيْنَ القَوَابِـــل بالعَـــدَاوَةِ يُنْشَـــعُ

١٥ - فَضِـــلَتْ عَـــدَاوَتُهُمْ عَلَـــى أَحْلاَمِهِـــمْ

وأَبَـــتْ ضِـــبَابُ صُـــدُورِهم لا تُنْـــزَعُ

١٦ - قَـــوْمٌ إِذا دَمَـــسَ الظَّـــلاَمُ عليـــهمُ

حَـــدَجُوا قَنَافِـــذَ بالنَّمِيمَـــةِ تَمْـــزَعُ

١٧ - أَمْثَـــالُ زَيْـــدٍ حِـــينَ أَفْسَـــدَ رَهْطَـــهُ

حتَّـــى تَشَـــتَّتَ أَمْـــرُهم فَتَصَـــدَّعُوا

١٨ - إِنَّ الَّـــذِينَ تَـــرَوْنَهُمْ إِخْـــوَانَكم

يَشْـــفِي غَلِيـــلِ صُـــدُورهم أَنْ تُصْـــرَعُوا

فهذه وصايا جامعة تمثل عصارة خبرته الطويلة في الحياة .

وقد راعى الشاعر فيها الترتيب في الذكر ، والتنويع في الأسلوب ، والانتقاء للألفاظ الموحية المصورة ، والتراكيب المعبرة الكاشفة عن معانيها :

١ – حيث ابتدأ بوصية أبنائه بتقوى الله تعالى ، وببر والدهم ، وهى الوصية الأهم ، لما فيها من صلاح حالهم وإصلاح علاقتهم مع الله تعالى ، ومع والدهم .

٢ – ثم أوصاهم بالاتحاد وترك الضغينة والتنابذ ، والتخلى عن الأحقاد فيما بينهم .

٣ – ثم حذرهم من النمام والمنافق الذى يزجى العداوة بينهم، وحثهم على عصيانه والابتعاد عنه .

٤ – ثم وجههم إلى أن لا يأمنوا قومًا باحوا بعداوتهم التى زادت وطغت على عقولهم وأحلامهم .

وهذا الترتيب ينم عن ثقافته الإسلامية وتأثره بتعاليم الإسلام ، كما ينبئ عن تجربته وخبرته الواسعة في الحياة والأحياء .

فأساس صلاح النفس تقوى الله تعالى وبر الوالدين ، أما الاتحاد وترك الضغينة والأحقاد فأساس القوة والنجاح ، وحتى لا ينفرط عقد اتحادهم وقوتهم حذرهم من النمام والمنافق وهو العدو الخفى ، ثم نهاهم عن الركون إلى العدو الظاهر الذى باح بعداوته .

وبذا تتحقق قوتهم ويحظون بالسعادة ، وينتفعون بما تركه لهم من مآثر ومكارم .

وقد نوع في أسلوبه وانتقى من الألفاظ والتراكيب ما يتناسب مع كل وصية تقدّم بها إلى أبنائه ليعملوا بها ، وما يكشف عن معانيه ويفى بغرضه ومقصوده.

ففى الوصية الأولى عهد إليهم وحثهم على تقوى الله سبحانه ، وعلى بر والدهم :

أُوصِيكُمُ بِتُقَى الإِلهِ فَإِنَّهُ
يُعْطِي الرَّغائِبِ مَنْ يَشَاءُ ويَمْنَعُ
وبِبِرِّ وَالِدِكُمْ وطاعةِ أَمرِهِ
إِنَّ الأَبَرَّ مِن البَنِينِ الأَطْوَعُ
إِنَّ الكَبِيرَ إِذا عَصَاهُ أَهْلُهُ
ضَاقَتْ يَدَاهُ بِأَمرِهِ ما يَصْنَعُ

وقد صاغها بأسلوب الخبر المراد منه الأمر ، وذلك بقصد الترغيب في التقوى والبرّ ، وبيان أثرهما في صلاح النفوس ، عن طريق الإخبار عن عظم منزلتهما وجموم فوائدهما .

فقوله : (أوصيكم بتقى الإله ... وببر والدكم ...) أى : أعهد إليكم وآمركم بتقوى الله ، وببر والدكم وطاعته . والمقصود : اتقوا الله وبرُّوا والدكم وأطيعوا أمره، وهو متأثر في ذلك بأسلوب القرآن ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[النساء : ١١] أى : يعهد إليكم ويأمركم في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة [١] .

(١) الكشاف للزمخشري ٥٠٥/١ طبعة: دار الفكر- بيروت.

فإيثار شاعرنا التعبير بأسلوب الخبر هنا يحقق الأغراض التالية :

- إظهار حرصه على تحقق وقوع ما يوصى به .

- الإشارة إلى أن ما يطلبه منهم بمثابة العهد والميثاق .

- حثهم على تقوية صلتهم بالله تعالى ، وعلى برّ والدهم وطاعته، فالوصية مأخوذة من قولهم: أرضٌ واصية، متصلة النبات [١] .

ومما يدعم إرادة معنى الأمر من لفظ الخبر في هذا السياق :

- التعبير بفعل (أوصيكم) من أوصى إيصاء ، والإيصاء أمر أو نهى يتعلق بصلاح المخاطب خصوصًا أو عمومًا ، وفى فوته ضرّ ، فالوصية أبلغ من مطلق أمر ونهى ، فلا تطلق إلا حيث يخاف الفوات إما بالنسبة للموصى ، ولذلك كثر الإيصاء عند توقع الموت - كما هو الحال عند شاعرنا - وإما بالنسبة إلى الموصَى ، كالوصية عند السفر [٢] .

- جملة التعليل المشتملة على وعظٍ محرِّكٍ للمشاعر مرغِّب في فعل الموصى به ، والمؤكدة بـ (إنَّ) : (فإنه يعطى الرغائب من يشاء ويمنع) ، (إن الأبرَّ من البنين الأطوعُ) .

والمقصود : اتقوا الله لتحظوا بسعة عطائه سبحانه ، وبروا والدكم لتنالوا الثواب بكثرة بركم وطاعتكم له .

وقد وفق الشاعر في انتقاء الألفاظ والتراكيب المعبرة عن معانيه أصدق تعبير وأوفاه :

---

(١) تاج العروس مادة (وصى) ٤ / ٢٠٩ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ١ / ٧٢٧ - الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م .

تأمل ما افادته فاء الربط والتعليل (فإنه) من إحكام الكلام وترابط أجزائه ، وشدة ارتباط ثانٍ منه بأول ، مما يغرس في النفوس حب التقوى والطاعة حتى تحظى بسعة عطاء الله تعالى المتجدد المستمر ، كما ينطق بذلك التعبير بصيغة الفعل المضارع (يعطى – يشاء – يمنع) وما يؤديه التأكيد بـ (إن) من تحقيق وتقرير طلاقة المشيئة الإلهية في العطاء والمنع ، مما يعكس عمق إحساس الشاعر بمعانيه وحرصه على تأديتها مقررة مؤكدة كما أحسّتها نفسه ، ورغبته الحثيثة في ترغيب ابنائه في التقوى والطاعة وتحذيرهم من المعصية .

ودقق النظر فيما قام به الشاعر من حذف ما يدل عليه سياق الكلام ويفهمه في قوله (ويمنع) أى : ويمنعها عمَّن يشاء، فالنصُّ على المحذوف في قوله: (يُعطي الرغائبَ مَن يشاء) أغنى عن إعادتها مرة أخرى ، وهذا يعطى كلامه دقة وإحكامًا ويبعده عن الإطالة والعبث .

ثم تأمل اصطفاء التعبير بكلمة (الرغائب) عن سعة عطاء الله ونفاسة المعطى وعظمته ، فالرغائب : جمع رغيبة ، وهى الشىء الواسع الكثير ، والشىء النفيس [١] .

وتذوق معى دقة التعريف بـ (أل) في كلمات (الإله – الرغائب – الأبرّ – الأطوع – الكبير) وما يفيده من تعظيم وتفخيم وكمال وعلوّ شأن ورفعة ، وكلها معانٍ تصب في مقصود الشاعر في الحث على التقوى والبر والطاعة .

والطباق في قوله : (يعطى) و (يمنع) يقرر طلاقة المشيئة الإلهية في العطاء والمنع ، ويؤكد ارتباط ذلك بالتقوى ، ويعكس حرص الشاعر على إبراز التقابل بين حالى العطاء والمنع ، المرتبطين بالعمل والسلوك مع الله تعالى ؛ ولذلك جاء الطباق بين (طاعة) و (عصاه)، ليبرز مدى المفارقة بين سلوك طريق

(١) المفضليات ص ١٤٦ .

الطاعة وسلوك طريق المعصية ، وليؤكد عظم شأن الطاعة ، وسوء المعصية ، مما ينبئ عن رغبة الشاعر الحثيثة في حمل أبنائه وحثهم على الطاعة وتنفيرهم من المعصية .

وقد دعَّم رغبته تلك بتكرار ألفاظ الطاعة : (بر – طاعة – الأبر – الأطوع) ليقررها في نفوسهم ويغرسها في قلوبهم ، في حين لم يذكر المعصية إلا مرة واحدة بصيغة الفعل الماضى (عصاه) الواقع في جملة الشرط الواقعة خبر لـ (إن) في قوله :

إِنَّ الكَبِيرَ إِذا عَصَاهُ أَهْلُهُ

ضَاقَتْ يَدَاهُ بِأَمرِهِ مَا يَصْنَعُ

فهذا البيت تأكيد بعد تأكيد للدلالة على حرصه على توضيح فكرة الترغيب في البر والطاعة والتنفير من المعصية .

والخبر فيه يؤدى معانى: الاستعطاف والاستمالة ، وإظهار الضعف ، والمقصود منه : تأجيج مشاعر البر والطاعة عند أبنائه بالإخبار عن مآل عصيان الأهل وشدة أثره على الكبير ، وهذه حقيقة حرص الشاعر على بيانها بصيغة العموم لتزداد رسوخًا في نفوسهم .

ووقوع الشرط وجوابه خبرًا لـ (إنَّ) يكشف عن شدة وقع عصيان الأهل على نفس الكبير ، وينبئ عن الارتباط الوثيق وشدة التعلق بين حصول ضيق يد الشيخ الكبير وقلّة حيلته، وبين عصيان أهله له ، وعدم اكتراثهم بأمره وبنصائحه المجسدة لعمق خبرته وتجاربه .

ومعلوم أن الشرط قائم على تعليق حصول الجواب بحصول شرطه وتحققه [١] .

(١) ينظر: حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٣٦/٢ (ضمن شروح التلخيص).

والتعبير بـ (إذا) الشرطية التى تستعمل في الأمر المحقق [١] ينبئ عن عميق إحساس الشاعر واعتقاده فى وقوع عصيان الأهل للكبير ، مما يعكس رغبته الحثيثة فى استمالة أبنائه وتحريك مشاعرهم نحوه .

وقوله : (ضاقت يداه بأمره) كناية عن العجز والوهن وعدم القدرة على إنفاذ الأمر، وهى تجسد حال الشيخ المسنّ حين يعصيه أهله فلا يدرى ما يصنع!

ومن أمثال العرب : (لا أمر لمعصىّ) [٢] .

وقوله : (ما يصنع) يجوز أن يكون موضع (ما) جرًّا على أن يكون بدلاً من (أمره) كأنه قيل : ضاقت يداه بصنيعه ، ويكون (الأمر) واحد الأمور .

ويجوز أن يكون (ما) فى موضع المفعول من (أمره) ويكون (الأمر) مصدر أمرت ، ويقال : أمرتك كذا وبكذا ، ويكون التقدير : ضاقت يداه بأمر بالصنيع والانتهاء إليه ، والمعنى : لا يقدر أن يحكم ما يأمر به إذا عصى .

ويجوز أن يجعل من باب ما شغل الفعل عنه ، فأشبه المفعول ، فنصب كقولك : ضقت به ذرعًا ، ويكون (ما) مع الفعل فى تقدير المصدر ، كأنه قال : ضاق صنعه بأمره ، فنُقل الفعل إلى اليدين ، فقيل : ضاقت يداه ، فأشبه (ما يصنع) المفعول فنصب [٣] .

فهذه الأوجه الثلاثة فى موضع (ما يصنع) قائمة على اعتبار (ما) مصدرية كما هو ظاهر .

ويمكن أن تكون (ما) هنا استفهامية ، أى : ماذا يصنع فيه ، وكيف

---

(١) ينظر: حاشية الدسوقي٢/٣٥.

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ٢ / ٢١٥ .

(٣) شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزى ١ / ٩٦١ .

يستطيع إنفاذه ؟ وقد ضاقت يداه له ولم يستطع إنفاذه بعصيان أهله له ؟

والاستفهام يفيد معانى الحيرة والدهشة والحزن الممزوج بحسرة شديدة على عصيان أهله له ؛ مما يؤكد مقصود الكناية قبله ، وهو نفى القدرة على إنفاذ ما يأمر ، والعجز عن إحكام أمره حين يعصيه أهله .

ثم ينتقل الشاعر إلى الإيصاء بصيغتى الأمر والنهى بعد الإيصاء بصيغة الخبر ، ليجمع فى إيصائه بين عطاء كل من الخبر والإنشاء ، والتحول من أسلوب إلى آخر والجمع بينهما فى سياق واحد يعطى النص حيوية وحياة ، قلَّ أن نجد لها مثيلاً إذا خلا النص من هذا التحول ، وهذا الانتقال [١] .

يقول عبدة محذرًا أبناءه من الضغينة والأحقاد ومن النمام الذى يسعى بالنمائم بينهم :

وَدَعُوا الضَّغِينَةَ لا تَكُنْ مِن شَأْنِكمْ
إِنَّ الضَّغَائنَ لِلْقَرَابَةَ تُوضَعُ
وَاعْصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّمَائِمَ بيْنَكم
مُتَنَصِّحاً، ذَاكَ السِّمامُ المُنْقَعُ
يُزْجِي عَقَارِبَهُ لِيَبْعَثَ بَيْنَكم
حَرْباً كمَا بَعَثَ العُرُوقَ الأَخْدَعُ
حَرَّانَ لا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِهِ
عَسَلٌ بماءٍ في الإِنَاءِ مُشَعْشَعُ

فقوله : (ودعوا الضغينة) أمر بترك الضغينة ، وهو معطوف على

(١) ينظر : فن البلاغة ، د / عبد القادر حسين ص ٢٧٣ ، مؤسسة الرسالة .

(أوصيكم) ، وقد راعى فيه ما تضمنه من معنى الأمر ، فعطف عليه الأمر الصريح ، لما بينهما من التوسط بين الكمالين ، حيث اتفقت الجملتان في الإنشائية معنى ، واختلفتا في اللفظ ، وهذا يكسب كلامه حيوية تدفع الملل والسأم عن المتلقى .

والأمر في قوله : (ودعوا الضغينة) مستعمل في التحذير والتخويف من تفشى الضغائن بينهم . والضِّغن والضَّغن : الحقد ، والجمع أضغان ، وكذلك الضغينة ، وجمعها الضغائن [١] .

يقول : اتركوا الحقد وانبذوه فيما بينكم، حتى لا يفسد اتحادكم ويفرق جمعكم .

ثم أكد مقصوده من الأمر بجملة النهى (لاتكن من شأنكم) أى لا تجعلوها بينكم شأنًا وحالاً بل تخلوا عنها ، وتعاقب الأمر والنهى على معنى واحد ينبئ عن رغبة الشاعر في تقويته وتحقيقه بأكثر من صيغة ، وقد زاد في تقريره لمعنى التحذير والتخويف من الضغائن ، وفى تقوية مقصوده من ذلك بجملة التعليل المصدره بـ (إنَّ) المؤكدة : (إنَّ الضغائن للقرابة تُوضَعُ) ، والمعنى : إن الضغائن في القرابة سريعة الانتشار والتفشى ، فقوله (توضع) من الوضع بمعنى العَدْو ، وهو مأخوذ من قولهم : أوضع البعير إذا حمله راكبه على سرعة السير [٢] .

ففى التعبير استعارة مكنية بتشبيه الضغائن التى تزرع وتحرك بسرعة فتتفشى بين الأقارب بالإبل يوضعها الراكب ويحملها على سرعة السير .

---

(١) لسان العرب مادة (ضغن) ١٣ / ٢٥٥ .

(٢) لسان العرب مادة (وضع) ٨ / ٣٩٨ .

والقرينة إيقاع الوضع على الضغائن وهو تخييل ، والاستعارة هنا تجسد حركة الضغائن وتفشيها في القرابة حين تدب بينهم وتجد من يحركها وينفث فيها من الأسباب والوسائل التى لا يمكن حصرها وتحديدها ، وهذا سر بناء الفعل (توضع) للمفعول وحذف فاعله لإفادة العموم أو لتعفف اللسان عن ذكره والنطق به تحقيرًا له .

والإيضاع : السير بين القوم [١] بفتنة أو نميمة أو غيرها ، قال تعالى : (وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) [التوبة : ٤٧] .

وإعادة ذكر الضغينة بصيغة الجمع " الضغائن " يفيد أن " أل " فيها لاستغراق الجنس ، وأن مقصود الشاعر التحذير من أى ضغينة صغرت أو كبرت؛ لأنها تتفشى حتى تصير كالنار في الهشيم تأكل وتدمر كل شىء ، وهذا سر ابتداء تحذيره بها لخطورتها على وحدتهم وقوتهم .

ولما ختم التحذير من الضغائن بقوله : (تُوضَع) بالبناء للمفعول للإشارة إلى أن الضغائن تنتشر في القرابة بفعل تحريكها والسعى في تفشيها، ناسب أن يذكر النمَّام الذى ينفث سمه لتشتعل الضغائن والأحقاد والعدوان بينهم ، فقال محذرًا منه ومصورًا فعله وحركته وغليان فؤاده بالحقد والبغض :

وَاعْصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّمَائِمَ بَيْنَكم
مُتَنَصِّحاً، ذَاكَ السِّمامُ المُنْقَعُ
يُزْجِي عَقَارِبَهُ لِيَبْعَثَ بَيْنَكم
حَرْباً كما بَعَثَ العُرُوقَ الأَخْدَعُ

(١) السابق نفسه .

حَـــــرَّانَ لا يَشْـــــفِي غَلِيـــــلَ فُـــــؤَادِهِ

عَسَـــــلٌ بمـــــاءٍ في الإِنَـــــاءِ مُشَعْشَـــــعُ

يحذر عبدة أبناءه من النمَّام ويأمرهم بعصيانه وعدم الاستجابة لما يسوقه بينهم من النمائم ، عن طريق وصف فعله الظاهر وشعوره الباطن، وإبرازه في صورة منفرة تدعو إلى الحذر منه والابتعاد عنه .

فالأبيات الثلاثة ترسم لوحة فنية معبرة وناطقة بسلوك النمَّام الظاهر القاتل للوحدة المبدِّد لقوتها ، وكاشفة عن مشاعره الباطنة وفؤاده المتقد بالكراهية والحقد .

ونلحظ هنا قوة الألفاظ وجزالتها مما ينبئ عن وعى الشاعر بمعانيه ، ودقته في تخير ألفاظه وعباراته وفق طبيعة كل معنى ، فحين أوصاهم بتقوى الله وبر والدهم جاءت ألفاظه سهلة واضحة متأثرة بثقافة الإسلام وأسلوب القرآن ، أما في حديثه هنا عن النمام ، ثم عن هؤلاء القوم الذين زادت عداوتهم فباحوا بها – كما سيأتى – فإنه أتى بألفاظ جزلة قوية وصور من ذاكرته في حياة الجاهلية ، وهذا سلوك في البيان ينم عن امتلاكه لأدواته البيانية ، وقدرته في الانتقاء منها والتخيُّر مراعيًا في ذلك طبيعة المعنى وسياقه والمقصود منه .

قوله : (واعصوا) معطوف على قوله : (ودعوا) لما بينهما من التناسب التام والاتفاق في الإنشائية لفظًا ومعنى ، والفعلان يتآذران في الدلالة على الترك والتخلى والابتعاد عن كل ما يضر ، ويشتركان في إفادة التحذير من التمسك بالضغائن، والانجراف وراء النمَّام الذى يسوق النمائم بقصد الإفساد ، ويتصنع النصيحة ويلبس زى النصحاء ! فهو يظهر خلاف ما يبطن ، وهذا ما جعل الشاعر يحرص على تصوير سلوكه الظاهر ووصف شعوره الباطن .

وقد اصطفى للتعبير عنه الاسم الموصول (الذى)؛ ليتمكن عن طريق صلة الموصول من وصف سلوك النمام وافعاله القبيحة وسعيه المفسد ، وذلك بقصد تحقيره والتنفير منه ، فالغرض من التعبير بالموصول (الذى) التحقير والتشهير بأفعاله القبيحة المفسدة .

يقول الإمام عبد القاهر عن التعريف بـ (الذى) واسراره : " اعلم أن لك في (الذى) علمًا كثيرًا واسرارًا جمَّة ، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس ، وتثلج الصدر ، بما يفضى بك إليه من اليقين ، ويؤديه إليك من حسن التبيين " (١) .

قوله : (يزجى النمائم بينكم) وصف كاشف لحركة النمام وهو يسوق النمائم بينهم ويدفعها دفعًا . فالفعل (يزجى) معناه : يسوق ، والتزجية : دفع الشيء لينساق كتزجية رديف البعير ، وتزجية الريح السحاب (٢) ، وقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا)[النور : ٤٣] أى : يسوقه .

ففى التعبير استعارة مكنية بتشبيه النمائم يحركها النمام بالبعير يدفع ويزجى رديفه ليسرع في السير .

وحذف المشبه به ورمز له بلازمه (يزجى) وإثبات التزجية للنمائم تخييل وهى قرينة المكنية .

وقد جسدت الاستعارة النمائم وأبرزتها فى صورة واضحة ، وصورت فعل النمَّام فى تحريكها ودفعها لتنتشر بينهم وتفلَّ قُوَّتهم، وتفكك تماسكهم .

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ١٩٩ ، تحقيق / أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى ، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ٢ / ٢١٢ دار التحرير للطبع والنشر– القاهرة.

وتقييد (يزجى) بقوله (بينكم) تحديد المكان وطبيعة حركة النمام ، وهو يسوق نمائمه ويدفعها لتنساق وتنساب بينهم انسياب السحاب فى السماء ، والبعير فى الصحراء .

وقوله (متنصحًا) حال تتعلق بفاعل (يزجى) ، أى : يسوق نمائمه حال كونه متلبسًا بالنصيحة مرتديًا زى النصحاء ، وهى تكشف عن حرصه على أن لا ينكشف أمره ، وتصور طبيعة شخصيته التى تظهر خلاف ما تبطن مما يجعلها أكثر خطورة من العدو الظاهر ، وأعمق أثرًا وأشد فتكًا ، ولذا شبهه بالسمّ القاتل فقال : (ذاك السمام المنقَعُ) والسّمام : جمع سُمّ ، والمنقع : المعتق [١] .

نقع السّم: عتَّقه. وسمٌّ ناقع: بالغ قاتل، نقع السمّ في أنياب الحية : اجتمع ، قال الشاعر[٢] :

أبعد الذى قد لجَّ تتخذيننى
عدُوًّا ، وقد جرَّعْتِنى السمَّ مُنقعَا ؟

وقال النابغة الذبياني[٣] :

فبِتُّ كأنِّى ساورتني ضئيلةٌ
من الرقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

فقوله : (السم منقعًا) أى : معتقًا .

---

(١) ينظر: المفضليات ص١٤٥ ، ولسان العرب مادة (نقع)٣٦٠/٨.

(٢) البيت بلا نسبة في "لسان العرب" ٣٦٠/٨. وذكره أبو تمام في الحماسة مع ثلاثة أبيات أخرى دون نسبة (شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٢٦/٢ الناشر: دار القلم – بيروت).

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص٣٣ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم– الطبعة الثالثة دار المعارف– مصر.

وقول النابغة : (السمُّ ناقعُ) أى : مجتمع فى أنيابها ، يصف حاله حين وصله وعيد النعمان بن المنذر ، وكأن حيَّة ضئيلة قد اجتمع السمُّ فى أنيابها قد لدغته وساورته .

ويبدو تأثر شاعرنا بألفاظ الشعراء قبله حين شبه النمَّام بالسّمام المنقع فى القتل وشدة الفتك ، وهو من التشبيه البليغ الذى حذفت أداته ووجهه ، كما ذكر الإمام عبد القاهر[١] .

وقوله (ذاك) إشارة إلى النمام وفعله فى سوق النمائم بينهم ، والتعبير به لإفادة التهويل والتفظيع والتحقير ، وكلها معان تبعث على التنفير منه والتحذير من مسالكه ومساعيه القاتلة للاتحاد المبددة للقوة .

وقوله (السِّمام) خبر لاسم الإشارة تم به المعنى ، أما قوله (المنقع) فهو وصف للمشبه به قصد منه المبالغة فى التشبيه ، فهو من الإيغال [٢] فى التشبيه والغرض منه : المبالغة فى الشبه .

والتعبير بصيغة الجمع (السمام) ليناسب الجمع فى (النمائم) ، وكأن كل نميمة يسعى بها النمام وينفثها بينهم هى سم قاتل ومعتق قد اجتمع فى جوفه فهو يلقيه بينهم مرة بعد مرة ، وهذا إبلاغ في وصف فعل النمام وأثر النميمة فيهم .

ولكى تزداد صورة النمام وضوحًا كرر التعبير بصيغة الفعل المضارع (يزجى) فى قوله : (يزجى عقاربه ليبعث بينكم حربًا) وذلك بقصد استحضار صورة النمام وهو يسعى بالنميمة ويسوق النمائم بينهم ، وتأكيد وتقرير قبح فعله، وتجليته ببيان أثره فى إشعال نار الحرب بينهم .

---

(٤) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ص٢٤٨ تحقيق/ محمود محمد شاكر– مطبعة المدني القاهرة.

(٢) الإيغال هو : ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها. (الإيضاح للخطيب ١٩٩).

وقد عبر عن النمائم بقوله : (عقاربه) على سبيل الاستعارة المكنية بتشبيه النمائم بالعقارب فى الضرر البالغ الذى قد يفضى إلى الموت ، وإذا كانت العقارب تضر الجسم بسمها وقد تميته ، فإن النمائم تضر بلحمة الأخوة والقرابة وتفتك بها ، وفى هذا توضيح وبيان للمعانى العقلية عن طريق إلحاقها بالمحسوس المشاهد فتكتسى ثوبه ويعبر عنها بلفظه .

وقد أضاف بقوله (ليبعث بينكم حَرْباً كما بَعَثَ العُرُوقَ الأَخْدَعُ) أثرًا ملموسًا لعمل النمائم فيهم ، وكشف عن غرض النمام وغايته من سوق نمائمه بينهم ، وهو بعث الحرب وإشعالها بينهم بطريق التداعى والاستجابة والتأثر ؛ ولذلك شبه حالهم فى بعث الحرب بينهم متأثرين بفعل النمام بحال العروق فى جسم الإنسان تأثر وتستجيب لعرق " الأخدع " ، وهو عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق [١] .

وبعد أن وصف فعل النمام وسلوكه الظاهر ونمائمه ، وصور أثر ذلك فيهم ، أخذ يصف باطنه الذى يغلى بالحقد فقال :

حَرَّانَ لا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِهِ

عَسَلٌ بماءٍ في الإِنَاءِ مُشَعْشَعُ

يقول : لقد التهبت الحرارة في صدر هذا النمام ، واشتعلت في جوفه ، واتَّقد فؤاده بالضّغن والحقد والحسد ، حتى إنه لا يشفيه شراب العسل الممزوج بالماء .

(حرَّان) : عطشان ، والتعبير به مبالغة في شدة الحر . حرت كبده وصدره ، واستحرَّت : يبست من عطشٍ أو حزن ، ومصدره الحرر .

---

(١) المفضليات ص ١٤٦ .

قال الشاعر :

وحرَّ صدر الشيخ حتى صلأ [١]

أى التهبت الحرارة فى صدره حتى سمع لها صليل [٢] .

ومبعث الحرارة فى جوف النمام شدة الحقد والحسد ، فهو متعطش لإيذائهم وإشعال الحرب بينهم بكلامه المشبه للعقارب السامة ، يخرج من جوفه الممتلئ بحرارة الحقد والحسد المفعم بالكراهية والضغينة .

فقوله (حرَّان) حال من فاعل (يزجى عقاربه) أى : يسوق شروره ونمائمه ليبعث بينكم عدوة وحربًا حال كونه حران ، أى يغلى جوفه من حرارة الغيظ ، وفى وصف النمام بهذه الحال (حرَّان) استعارة مكنية يقصد منها تصوير ما يغلى فى جوفه من حرارة الغيظ .

شبه حال النمام الحاقد المتقد فؤاده بالحسد والضغن بحال رجل شديد العطش لا يروى لشدة عطشه وحرارة جوفه ، وإذا كان العطشان يترقب ريًّا أو يمكن أن يرتوى ، فإن هذا النمام الحاقد لا يشفى غليل فؤاده وحرّ جوفه شراب العسل الممزوج بالماء ، فالغرض من الإخبار بجملة (لا يشفى غليل فؤاده عسل بماءٍ فى الإناء مشعشع) [٣] المبالغة فى بيان شدة حرارة جوفه واتقاد فؤاده ، والتيئيس من شفاء فؤاده المتقد بغضًا وحقدًا ، ففى هذه الاستعارة إبراز للمعانى والمشاعر الباطنة فى صورة محسوسة ملموسة .

---

(١) الرجز بلا نسب في لسان العرب مادة (حرر) ١٨٧/٤.

(٢) لسان العرب مادة (حرر) ٤ / ١٧٨ .

(٣) مشعشع : ممزوج ، شعشع التراب : مزجه بالماء . لسان العرب (شعع) ٨ / ١٨٢ .

وتأمل دقة الشاعر فى انتقاء الألفاظ المتناغمة (حران – غليل – فؤاده) ، (عسل – ماء – مشعشع) فالألفاظ الثلاثة الأول تتآزر فى الدلالة على شدة العطش وحرارة الجوف واتقاد القلب ، الذى عبر عنه بالفؤاد وهو مأخوذ من التفؤد بمعنى التوقد [١] .

أما الألفاظ الثلاثة الأُخر فإنها تدل على الرطوبة والرىّ والطعم اللذيذ ، مما نفاه الشاعر عن النمام ، فهناك تقابل فى المعانى والظلال بين هذه الألفاظ وتلك ، ومن ثم حرص الشاعر على إثبات المعانى والأوصاف الأول ، وسلط النفى على إمكانية الشفاء منها ولو بهذا العسل الممزوج بالماء فى الإناء .

وجملة (لا يشفى غليل فؤاده عسل بماءٍ فى الإناء مشعشع) تدل بمنطوقها على نفى شفاء حرقة فؤاده المتقد غيظًا بشراب العسل الممزوج بالماء ، وبمفهومها على إثبات شفائه فيما يسوقه ويرميهم به من شروره ونمائمه ، وفيما يجلبه عليهم من مكروهه وشره ، وذلك كما يفهم من سياق الكلام .

ثم يحذرهم بطريق النهى من أن يأمنوا قومًا باحوا بعداوتهم المتأصلة فيهم ، حيث يشب عليها صغيرهم بين القوابل :

لا تَـــأْمَنُوا قَوْمـــاً يَشِـــبُّ صَـــبِيُّهُمْ

بَـــيْنَ القَوَابِـــل بالعَـــدَاوَةِ يُنْشَـــعُ

وصيغة النهى هى (لا) الجازمة الداخلة على الفعل المضارع [٢] .

---

(١) لسان العرب مادة (فأد) ٣/٣٢٨.

(٢) ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٥٢ ، مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٤٥٦ هـ .

وقد دخلت (لا) هنا على المضارع الرافع لضمير المخاطبين (لا تأمنوا) ، والمقصود من النهى : التحذير والتخويف .

وتنكير (قومًا) يفيد التحقير والتوبيخ ، كما يومئ إلى ذلك وصفهم بهذه الجملة (يشب صبيهم بين القوابل بالعداوة ينشع) فهذه الجملة صفة للنكرة (قومًا) بها يعرفون ويتصفون .

والمعنى : لا تأمنوا قومًا يشب صغيرهم منشوعًا بالعداوة بين القوابل .

ويقال : فلان منشوع بكذا ، أى مولع به ، كأنه ربى عليه [١] ، وهذا كناية عن شدة العداوة وتأصلها وشيوعها فيهم ، .

والقوابل : جمع قابلة ، وهى التى تتلقى المولود عند ولادته [٢] .

والمقصود من ذكر القيد (بين القوابل) المبالغة فى تأكيد تأصيل العداوة فيهم ، وهى من المبالغة الشعرية المؤكدة للمعنى المقصود ، فهذا القيد ظرف لقوله : (بالعداوة ينشع) .

وقوله (ينشع) فى موضع الحال من (صبيبهم) ، ويروى (صغيرهم) ، و (وليدهم) [٣] ، وكلها تبرز وتؤكد ضرب العداوة فيهم بجذورها منذ نعومة أظفارهم .

وقدَّم الجار والمجرور (بالعداوة) على متعلقه (ينشع) لإبراز أهميته والاعتناء به فى هذا السياق ؛ لكونه المقصود من التحذير والسبب الداعى إليه .

---

(١) شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزى ١ / ٦٩٤ ، ولسان العرب مادة (نشع) ٣٥٥/٨.
(٢) المفضليات ص ١٤٧ .
(٣) المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٢٩٨ .

وقوله (ينشع) من النشوع ، وهو السعوط يكون فى الأنف ، والسعوط : اسم الدواء يصب فى الأنف [١] .

وفى وقوع النشوع على العداوة استعارة مكنية ، حيث شبه العداوة تغرس فى الصغير منذ ولادته بالدواء يصب فى الأنف بجامع السريان فى الجسم ، وحذف المشبه به ورمز له بلازمه (ينشع) .

وقيمة الاستعارة هنا تكمن فى تجسيد العداوة وتأكيد شدتها وتغلغلها فيهم، وجريانها مجرى الدم فى العروق ، وهذا ما جعلها تفضل على أحلامهم ، وتتغلب عليها ، كما أخبر عنه فى البيت التالى :

فَضِلَتْ عَدَاوَتُهُمْ عَلَى أَحْلاَمِهِمْ

وأَبَتْ ضِبَابُ صُدُورِهم لا تُنْزَعُ

فجملة (فضلت عداوتهم على أحلامهم) صفة ثانية لـ (قومًا) تقرر حجم العداوة ودرجة تغلغلها في نفوسهم حتى غلبت أحلامهم وزادت عليها ، وذلك بعد أن أكد بالصفة الأولى تأصلها فيهم ، ونشأة صغارهم عليها ، ومن ثم فصلت الجملة الثانية لكونها مؤكدة لمقصود الأولى .

والشاعر هنا يصور صراعًا بين العداوة والأحلام ينتهى بغلبة العداوة وتفوقها على الحلم ، فهذا تعبير عن شدة العداوة وتفوقها على الحلم ، ومعلوم أن " الحلم ما بقى في النفس غالبًا يحمل صاحبه على الأناة والتؤدة ، ويمنعه من العجلة ، وإن اشتدت العداوة عجز الحلم عن دفعها ومقاومتها ، وصار الغلبة لها"[٢] .

---

(١) لسان العرب (نشع) ٨ / ٣٥٤ ، (سعط) ٧ / ٣١٤ .

(٢) شرح اختيارات المفضل للتبريزى ١ / ٦٩٤ .

وفى إيراد العداوة بصيغة المفرد وإضافتها لضميرهم (عداوتهم) تأكيد لرسوخها فيهم والتقائهم عليها ، حتى عرفوا بها وصارت ملازمة لهم ، أما أحلامهم الضعيفة العاجزة فهى متفاوتة متنوعة فى عجزها وضعفها ؛ ولذا عبر عنها بصيغة الجمع (أحلامهم) .

والعداوة تستلزم حقدًا و ضغنًا مبعثه غيظ وتلهُّب فى النفس من شدة الحسد ، أما الحلم فإنه يستلزم أناة وتؤدة مبعثها سلام واطمئنان فى النفس ، فبين لازمى اللفظين طباق وتضاد يضفى على التعبير حسنًا ، ويؤكد تفوق العداوة والشر على الحلم والخير فى نفوس هؤلاء القوم .

وقوله : (وأبت ضباب صدورهم لا تنزع) معطوف على سابقه ؛ لاتحادهما فى الخبرية لفظًا ومعنى ، ولما بينهما من التناسب اللفظى والانسجام المعنوى ، فالضباب : الأحقاد ، جمع ضب ، والحقد والضغينة مبعث العداوة ولازمها .

وقد اتفقت الجملتان فى الفعلية ، وفى صيغة الفعل الماضى (فضلت – وأبت) ليتحقق التناغم والانسجام بين الجملتين فى اللفظ والمعنى .

وإضافة (ضباب) إلى (صدورهم) بيانية مؤكدة لرسوخ الأحقاد وتغلغلها فى قلوبهم .

والتعبير بالصدور عن القلوب مجاز مرسل علاقته المحلية ، حيث عبر بالمحل (الصدور) وأراد الحالَّ فيه (القلوب) بقصد المبالغة فى تأكيد رسوخ الأحقاد وسيطرتها على نفوسهم .

وقوله : (لا تنزع) نفى لإمكانية نزع الأحقاد من الصدور ، وهو دليل على المفعول المحذوف ، والتقدير : وأبت ضباب صدورهم النزع ، أى استعصت الأحقاد على أن تقتلع من القلوب لشدة رسوخها فيها .

فالتعبير بصيغة المضارع المنفى بـــ (لا) : (لا تنزع) لتأكيد إباء الأحقـــاد واستعصائها على النزع من القلوب .

والنزع : الاقتلاع والإزالة ، نزع الشيء ينزعه نزعًا : اقتلعه وأزالـــه [١] من مكانه الذى استقر فيه .

قال تعالى عن أهل الجنة من المتقين :(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ) [الحجر : ٤٧] ، والغل : الحقد الكامن في القلب من انغل في جوفه وتغلغـــل ، أى : إن كان لأحدهم في الدنيا غلٌّ على آخر نزع الله ذلك من قلـــوبهم ، وطيـــب نفوسهم [٢] .

وبعد أن قرر رسوخ عداوتهم وغلبتها على أحلامهم ، واستعصاء الأحقاد فى صدورهم على النزع ، أخذ فى تصوير سعيهم بالنميمة وتجسيد طريقتهم فـــى الاحتيال وإضمار الشر ، فقال :

قَـــــوْمٌ إِذا دَمَـــــسَ الظَّـــــلاَمُ علـــــيهمُ

حَـــــدَجُوا قَنَافِـــــذَ بالنَّمِيمَـــــةِ تَمْـــــزَعُ

وقد أعاد ذكر الاسم الظاهر (قوم) بدلاً من ضميرهم إمعانًا فى تحقيـــرهم والتحذير منهم ، وقصدًا إلى الاستئناف بما يدعو إلى التنفيـــر مـــنهم ، فقولـــه : (قوم) خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هم قومٌ .

وحذف ضميرهم للعلم به من السياق ، وللإمعان فى توبيخهم وتحقيرهم ، كما يشعر بذلك تنكير المسند (قومًا) .

---

(١) لسان العرب (نزع) ٨ / ٣٤٩ .

(٢) ينظر : الكشاف للزمخشرى ٢ / ٣٩٢ .

ومدلول النكرة تبينه الجملة بعدها (إذا دمس الظلام عليهم حَدَجُوا قَنَافِذَ بالنَّمِيمَةِ تَمْزَعُ) .

دَمَس : ألبس واشتدت ظلمته .

حدجوا : رحلوا ووضعوا الحدج على البعير استعدادًا للمسير . والحِدْج : مركب من مراكب النساء .

تمزع : تمر مرًّا سريعًا ، والمراد : يسهرون بالنميمة والاحتيال فى الشر كما يسهر القنفذ [١] ؛ لأنه ليله أجمع يسير ولا ينام [٢] .

شبههم بالقنافذ فى مواصلة السير والسهر ليلاً وعدم النوم ، والمقصود : ذمهم وتوبيخهم وتحقيرهم .

ولما كان ذمهم وتحقيرهم لا يتحقق بمجرد السير والتحرك طوال الليل ، فإنه قصد إلى تفصيل [٣] فى التشبيه يبرز المقصود ويوضح المعنى المراد ، فقال فى آخر البيت : (بالنميمة تمزع) ، فمقصوده من التشبيه : تأكيد أنهم يسهرون بالنميمة والاحتيال فى الشر .

---

(١) القنافذ: واحدها ا قنفذ. وهى صنفان: قنفذ ودلدل. فالقنفذ يكون بأرض مصر فى قدر الفأر. والدلدل يكون بالشأم والعراق وخراسان فى قدر الكلب القلطىّ . ويقال: إنه يسفد قائما وبطن الأنثى لاصق ببطن الذكر. والأنثى تبيض خمس بيضات؛ وليس هو كالبيض الذى له قشر يابس بل هو شبيه باللّحم. وتصرّف القنافذ بالليل أكثر من تصرّفها بالنهار.(نهاية الأرب في فنون الأدب- أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ) ١٦٢/١٠- الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة- الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

(٢) ينظر : المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٢٩٩ .

(٣) التفصيل في التشبيه ذكره الإمام عبد القاهر، وجعل له ثلاث صور، يقول – رحمه الله – :" واعلم أن قولنا التفصيلُ عبارةٌ جامعة، ومحصولها على الجملة أنَّ معك وصفين أو أوصافاً، فأنت تنظر فيها واحداً واحداً، وتَفْصِل بالتأمّل بعضها من بعض وأنّ بك في الجملة حاجةً إلى أن تنظُر في أكثر من شيء واحد، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة....." (ينظر: أسرار البلاغة ص١٦٦ وما بعدها).

وقد أفاد بناء الكلام على أسلوب الشرط شدة تعلق وارتباط سيرهم وحركتهم السريعة وسعيهم بالنميمة باشتداد ظلمة الليل ارتباط الجواب بشرطه وترتب وقوعه على حصول شرطه ، وهذا إمعان فى تحقيرهم وذمهم ؛ لما فيه من تصوير حركتهم وتخفيهم تحت جنح الظلام الدامس بعيدًا عن أعين الناس .

وبذا يتآزر بناء الكلام مع الصورة التشبيهية فى إبراز المعنى المراد ، وتحقيق المقصد والغرض المؤم .

وبعد أن صور حال النمّام وعداوة هؤلاء القوم وأكد أنهم يسهرون بالنميمة والاحتيال فى الشر ، قصد إلى تأكيد تحذيره منهم وذلك عن طريق ضرب المثل والاستدعاء لمشهد ظهر فيه أثر النميمة جليًا فى الإفساد والتفريق والتصدع، فقال :

أَمْثَالُ زَيْدٍ [1] حِينَ أَفْسَدَ رَهْطَهُ

حتَّى تَشَتَّتَ أَمْرُهم فَتَصَدَّعُوا

وزيد هذا أحد هؤلاء القوم الذين يغذون أطفالهم على سموم العداوة وهم ولدان صغار ، وقد أفسد أمر قومه بالفتنة والنميمة ، وبث فيهم العداوة فشتتهم وصدع وحدتهم ، يقول : إن الذى أحذركم منه وأعظكم أن تغتروا به من أعدائكم ومكانهم ، هو ما تحققتموه من فعل هذا الرجل بعشيرته ، حتى بدّد شملهم [2] ، ويبدو أن قصة هذا الرجل مع قومه كانت شائعة معروفة .

---

(١) هو زيد بن مالك بن حنظلة ، وكان المنذر خطب على رجل من اليمن من أصحابه امرأة من بنى زيد بن مالك ، فأبوا أن يزوجوه ، فنفاه م وفرَّقهم ، فنزلوا مكة . (ينظر : المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٢٩٩) .

(٢) ينظر : شرح اختبارات المفضل للتبريزى ٦٩٥/١ .

والتقييد بالظرف فى قوله : (حين أفسد رهطه) يبرز قدرة شاعرنا فى إصابة الغرض بالتركيز على ذكر ما يقوى مقصوده فى التحذير والموعظة ، حيث عبر بإيجاز شديد عن فعل الرجل بعشيرته وأثر ذلك عليهم .

فقوله (أفسد رهطه) تصوير لأفعاله ومساعيه السيئة التى أنتجت إفسادًا لهم ، وقد أفضى ذلك إلى تفرقهم وتصدّع وحدتهم :

" حتى تشتت أمرهم فتصدعوا "

فـ(حتى) حرف يفيد انتهاء الغاية ، وما بعدها غاية لما قبلها ، بمعنى أن سعى هذا الرجل فى إفساد قومه أفضى إلى تشتت أمرهم وفلّ وحدتهم وتصدع جمعهم وتفرقهم .

واصطفاء الضمير لكلمة (رهط) لما فيها من معنى التماسك والترابط والوحدة ، التى بدّدها وشتتها الإفساد ، ورهط الرجل : قومه وقبيلته [١] ، والرهط " الجماعة نحو العشرة يرجعون وينتسبون إلى أب واحد ، وسُموا رهطا تشبهًا بالرهط الذى هو قطعة من جلد أو قماش شققت سيورًا وفروعًا ولم تقطّع أطرافها مثل الشُّرُك فتكون فروعها شتى وأصلها واحد تلبسها الجارية يقال لها رهط [٢] .

ففى التعبير عن القبيلة أو الجماعة بالرهط استعارة تصريحية أصلية بجامع تماسك وترابط الفروع لارتباطها بأصل واحد .

وبين مدلول (رهط) وفعلى (تشتت – تصدعوا) طباق بين اسم وفعل يزيد

---

(١) لسان العرب (رهط) ٣٠٥/٧ .

(٢) ينظر : الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ص٢٨٠ تحقيق / محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة .

المعنى وضوحًا ، ويبرز المقصود ويجليه ، عن طريق الكشف عن مدى تحول حال القوم من الشيء إلى نقيضه ، بسبب سعى زيد فى إفساد وحدتهم وتماسكهم، حتى تشتت أمرهم وتصدّع جمعهم ، وهذا إبلاغ فى تبكيته وتوبيخه ، وتأكيد لمقصود الشاعر فى التحذير والموعظة والاعتبار .

وفى الجمع بين (تشتت) و (تصدعوا) مراعاة نظير [١] ؛ لما بينهما من التناسب والتآلف فى المعنى .

فقوله : (تشتت أمرهم) أى تفرق جمعهم ، من الشتّ : وهو الافتراق والتفريق [٢] .

وقوله (تصدعوا) أى : تفرقوا بعد لُحمة ووحدة ، من الصَّدْع ، وهو : الشق فى الشيء الصلب كالزجاجة والحائط وغيرهما [٣] .

وحرف الشين فى الفعل الأول يحكى حركة الانتشار والتفرق ، أما الدال المشددة فى الفعل الثانى فتصوره شدة أثر الإفساد فى صدع قوتهم وشق وحدتهم من الصلبة وتماسكهم القوىّ ، وبذا تتناغم أصوات كل كلمة وحروفها مع دلالتها، وتتعانقان فى تصوير المعنى وتجليته .

ويختم تحذيره لأبنائه بالتنبيه على الخطأ وتقرير الحقيقة التى يغفلون عنها ، فيقول :

إنَّ الَّـــذِينَ تَـــرَوْنَهُمْ إِخْـــوَانَكم

يَشْـــفِي غَلِيـــلِ صُـــدُورهم أَنْ تُصْـــرَعُوا

---

(١) مراعاة النظير وتسمى التناسب والائتلاف والتوفيق أيضا ، وهى أن يُجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد (الإيضاح للخطيب القزوينى ص ٣٥٥) .

(٢) لسان العرب (شتت) ٤٨/٢ .

(٣) لسان العرب (صدع) ١٩٤/٨ .

أى : هؤلاء الذين تظنون خطأً أنهم إخوانكم هم عطاش إلى صرعكم وقتلكم [١] .

وتأكيد الخبر بـ(إنَّ) فى قوله : (إن الذين ترونهم إخوانكم ....) مراعى فيه حال المخاطبين الذين أخطأوا تقدير الموقف حين ظنوا فى هؤلاء القوم خيرًا ، فاحتاجوا إلى تنبيه قوى موثق ومؤكد ، يحقق غرض الشاعر ورغبته الحثيثة فى التحذير والتوجيه والتنبيه .

وقد ذكر أهل العلم أن تعريف المسند إليه بالوصولية فى هذه الجملة غرضه تنبيه المخاطب على الخطأ فى ظنه ، إذ فى قوله : (إنَّ الذين) من التنبيه على الخطأ ما ليس فى قولك : إن القوم الفلانيين [٢] .

ويمكن أن يكون فى التعبير بالموصول وصلته إيماءٌ إلى وجه بناء الخبر أو التشويق إليه ، حتى إذا جاء الخبر تبين المخاطب خطأه فى ظنه ، وعرف حقيقة أمرهم وغاية مقصدهم ، ففى هذا الخبر إشارة إلى سوء غايتهم بكشف ما يلتهب فى صدورهم من الغيظ والتعطش إلى قتلهم ، وهذا يشير بدوره إلى إمكانية أن يومئ الموصول وصلته أيضًا إلى تحقيرهم والتشهير بما يضمرونه فى صدورهم من حقد وغيظ ! .

فكل هذه الإيماءات تحتملها العبارة بمعونة السياق ، وليس هناك ما يمنع من تعدد الإيماءات[٣] وتنوع الإشارات الموحية بخبئ المعانى والمقاصد والغايات.

---

(١) ينظر : المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٢٩٩ .

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٣٠٧/١ ، ومعاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص للعباسى ٣٥/١ .

(٣) ينظر : الأسلوب بناؤه وإيحاؤه د/ عبد الموجود متولى بهنسى ص١٥٣ ، مطبعة الأمانة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

وقوله : (ترونهم) أى : تظنونهم وتحسبونهم إخوانًا لكم يسعون فى مصلحتكم ، والتعبير بفعل الرؤية لإفادة قوة الظن والحسبان ؛ مما استوجب تنبيها وتأكيدا على الخطأ فى هذا الظن والحسبان .

وقوله : (أن تصرعوا) فى تأويل مصدر فاعل (يشفى) ، أى يشفيهم صَرْعكم ، والتعبير بالمصدر المؤول دون الصريح ؛ لما فيه من تصوير الحدث واستحضار مشهد الصرع والقتل .

وجملة (يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا) تصريح بما أفهمته جملة (لا يشفى غليل فؤاده عسل ..) التى أوردها فى وصف النمَّام ، وبذا يكون قد أثبت المعنى وقرره إفهامًا مرة ، وتصريحًا أخرى ، وهذا يعكس رغبته الحثيثة فى التأكيد على مقصودة من التحذير والتخويف من النمام ، والتنبيه ولفت الأنظار إلى هؤلاء الأعداء المتسترين بظلمة الليل، الساهرين بالنميمة والاحتيال فى الشر.

وقوله : (تصرعوا) أى تهلكوا أو تصابوا بالحوادث [١] ، والصرع : الإلقاء على الأرض ، فهو كناية عن الهلاك أو الإصابة بالحوادث [٢] .

وقد أورد الجاحظ (ت٢٥٥ هـ) الأبيات السابقة فى كتاب " الحيوان " ، عند حديثه عن تشبيه النمَّام بالقنفذ ؛ لأن القنفذ لا يظهر إلا بالليل كالمستخفى ، ولذلك شُبه به النمّام ، والمُداخِل ، والدسيس .

وقد عقَّب على هذه الأبيات بقوله : (وهذا الشعر من غُرر الأشعار ، وهو مما يحفظ) [٣] .

---

(١) مختصر السعد ٣٠٧/١ " ضمن شروح التلخيص " .

(٢) حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٣٠٧/١ " ضمن شروح التلخيص " .

(٣) ينظر : كتاب الحيوان للجاحظ ١٦٦/٤ – ١٦٨ ، ٤٦٢/٦ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

وفى هذا بيان لعلو شأنها وتقدمها وظهورها على الأشعار ، كتقدّم الغُــرَّة وظهورها.

وإنما يحفظ الشعر إذا كان سهلًا عذبًا فى ألفاظه واضــحًا فــى معانيــه ، معبرًا عن عاطفة صادقة ومشاعر جياشة ، قائمًا على انتقاء الألفاظ الموحيــة ، والتراكيب المترابطة ، والصور الكاشفة عن دقائق المعانى ...

وهذا ما لمسناه فى عينية عبده التى بين أيدينا .

المبحث الثالث

افتخاره بنفسه

وبعد أن ذمَّ الأعداء وكشف خصالهم السيئة وأفعالهم القبيحة أخذ يفتخر بنفسه ، وبرجاحة عقلة وغلبته فى الفاخرة والنافرة و الخصومة ، فقال :

١٩ - وثَنيَّـــةٍ مِـــن أَمْـــرِ قَـــوْمٍ عَـــزَّةٍ
فَرَجَـــتْ يَـــدَايَ فكـــانَ فيهـــا المَطْلَـــعُ

٢٠ - ومَقَـامِ خَصْمٍ قـائِمٍ ظَلِفاتُـهُ ظَظَلِفَاتُـهُ
مَـــنْ زَلَّ طـــارَ لـــه ثَنَـــاءٌ أَشْـــنَعُ

٢١ - أَصْـــدَرْتُهُمْ فيـــهِ أُقَـــوِّمُ دَرْأَهُـــمُ
عَـــضَّ الثِّقَـــافِ وهُـــمْ ظِمـــاءٌ جُـــوَّعُ

٢٢ - فَـــرَجَعْتُهُمْ شَـــتَّى كـــأَنَّ عَميـــدَهُمْ
في المَهْـــدِ يَمْـــرُثُ وَدْعَتَيْـــهِ مُرْضَـــعُ

وقد نظم هذه الأبيات على أسلوب الخبر المقصود منه الفخر والاعتزاز بالنفس ، تلك النفس التى تتمتع بحذق الرأى وحصافته ، وقوة الحضور عند الخصومة والمنازعة .

وكأن الشاعر أراد أن يثبت لنفسه ما نفاه عن هؤلاء القوم الذين حذر أبناءه من الركون إليهم ، أو أن يظنوا فيهم خيرًا ، وهذا طريق من التقابل فى المعنى حرص الشاعر عليه لتجلية مقاصده وأغراضه ، وتوضيح معانيه .

فغاية الشاعر ومراده من وصاياه فى هذه القصيدة أن يقول لهم : اقتدوا بى فى الفعل والقول يستقم أمركم [١] ، واحذروا النمام ولا تركنوا إلى قوم يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا أو ينالكم مكروه .

فقوله : " وثنيةٍ من أمر قوم عزّةٍ " عودٌ إلى ذكر رجاحة عقله وحذقه فى الأمور ، بعدما أشار إلى ذلك فى بيت المطلع فى قوله : " وفىّ لمصلح مستمتع " .

وهو استئناف ابتدائى الغرض منه الافتخار بحسن رأيه ورجاحة عقله ، وغلبته فى المنافرة والمفاخرة .

وقد عطفت الواو قصة على قصة ، ومشهدًا على مشهدٍ يناقضه ؛ لإبراز مدى المفارقة والمقابلة بينهما فى مقام التوجيه والنصح بقصد حثهم على الاقتداء به قولًا وفعلًا ، وحملهم على ترك الضغينة والحذر من النمام ، واليقظة لمكائد هؤلاء القوم الذين فضلت عداوتهم وأحقادهم على أحلامهم وعقولهم .

و(ثنيةٍ) هى العقبة فى الجبل ، أو الطريق العالى فيه [٢] ، وهى مجرورة بـ(رُبَّ) المقدرة بعد الواو .

و (عَزّة) – بفتح العين – : صعبة ، وهى نعت لـ(ثنية) ، وبكسر العين (عِزّة) : الأعزة ، نعت لـ (قوم) [٣] وضبطها بفتح العين أبلغ في الدلالة على المقصود ؛ لما فيه من المبالغة فى إثبات صعوبتها ، وتأكيد حسن رأيه وحذقه فى الأمور ، شبه الأمر المستغلق على هؤلاء القوم بالعقبة الصعبة فى الجبل أو الطريق الوعر العالى فيه ، والوجه : صعوبة المسلك وانتفاء المخرج ، وهذا من

---

(١) ينظر : شرح اختيارات المفضل للتبريزى ٧٠٠/١ .
(٢) لسان العرب (ثنى) ١٢٤/١٤ .
(٣) المفضليات صـ١٤٧ .

التشبيه البليغ [١] والتمثيل الكاشف للمعانى الموضح لخفائها عن طريق إلحاقها بأمر محسوس ، ففيه تجسيد لعجز هؤلاء القوم وضعف رأيهم فى إيجاد مسلك أو مخرج من هذا الأمر الشديد والموقف الصعب ، وهنا يتجلى رأى شاعرنا ورجاحة عقله فى إيجاد فرجة ومسلك لهذا الأمر الصعب :

فرجت يداى فكان فيها المطلع

يقول : جئت إلى أمر ليس فيه مسلك لأهله ففرجته برأيى وحِذقى فى الأمور [٢] .

فقوله : " فرجت يداى " ، أى فرجتها يداى ، كناية عن تذليل الأمر الصعب والخروج السهل منه ، وعبر باليد لأنها دليل القوة وأداة الفعل المنبثق عن حسن الرأى والحذق فى الأمور ؛ ومن ثم أضافه إلى نفسه (يداى) بقصد الافتخار بقوة رأيه، والاعتزاز بحذقه الذى ذلّل الصعب وأوجد مسلكًا فى الأمر المستغلق ، فأصلحه وهيأ فى مخرجًا لأهله .

وقد أفاد التنكير فى (ثنية) و (عزة) التفخيم والتهويل والتفظيع ، وهى معان تتناغى مع سياق الفخر والاعتزاز بالنفس .

ثم يتذكر الشاعر موقفًا فى خصومة ومنازعة تجلت فيه قوة حجاجه ، فتفوق على خصومه وأفحمهم ، يقول مصورًا هذا المشهد :

ومَقَامِ خَصْمٍ قائِمٍ ظَلِفَاتُهُ

مَنْ زَلَّ طارَلَه ثَنَاءٌ أَشْنَعُ

---

(١) جمهور العلماء على أن التشبيه البليغ هو : ما حذفت فيه الأداة والوجه ، وقد ذكر الخطيب أن التشبيه البعيد هو البليغ لغرابته ، (يراجع : أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صـ٢٤٨ مطبعة المدنى ، والإيضاح للخطيب صـ٤٤٥ ، وحاشية الدسوقى ٤٥٧/٣) .

(٢) المفضليات ، صـ١٤٧ .

أَصْـــــدَرْتُهُمْ فيـــــهِ أُقَـــــوِّمُ دَرْأَهُـــــمُ

عَـــضَّ الثِّقَـــافِ وهُـــمْ ظِمـــاءٌ جُـــوَّعُ

فَـــرَجَعْتُهُمْ شَـــتَّى كـــأَنَّ عَمِيـــدَهُمْ

فِي المَهْـــدِ يَمْـــرُثُ وَدْعَتَيْـــهِ مُرْضَـــعُ

الخصم : الخصوم يقال للواحد وغيرِه [١] .

وقوله : (ومقام خصم) معطوف على (ثنية) أى : ورب مقـام لـى فـى جماعة خصوم ، من عطف مشهد على مشهد ، والإضافة فيه بيانية كاشفة عـن حقيقة وطبيعة هذا المقام ، وأنه كان فى خصومة ومنازعة ومفاخرة .

وقوله : (قائم ظلفاته) صفة لـ(خصم) راعى فيه لفظه فـأورده بصـيغة المفرد ؛ وذلك للإبلاغ فى نعتهم بالاتحاد والاتفاق اعتناءً بشأن هذه الخصـومة ، يقول الأصمعى : " يقال للرجل إذا قام بالأمر وعنى به واشتد فيـه : قـائم فـى ظلفاته ، والظلفات : الخشبات التى تلى جنب البعير من الرّحْل " [٢] .

ففى قوله : " قائم ظلفاته " كناية عن اعتنائهم بـأمر الخصـومة وشـدة اهتمامهم به ، وحرصهم على استقامة قولهم وقوة حجتهم وعلوها ، والتى تشبه استقامة وقوة وعلو هذه الخشبات من الرحل ، ففى التعبير استعارة تصـريحية ، حيث شبه القول فى الخصومة والحجة فيه بالظلفات بجـامع الاسـتقامة والعلـو والقوة .

والمقصود من ذلك : التفخيم والتهويل من شأن هذا المقام ، وقد أكد هذا المعنى بقوله :

---

(١) المفضليات ، ص ١٤٨ .

(٢) المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٣٠٠ .

"من زلّ طار له ثناءٌ أشنعُ"

أى : من زلت قدمه فى هذه المقام ، ولم يقم فيه بحجة شاع عنه ثناءٌ قبيح يذكره الناس به ، والأشنع : القبيح [١] .

شبه الثناء القبيح بطائر يطير بجامع سرعة التنقل والحركة والانتشار ، وحذف المشبه به ورمز له بلازمه (طار) على سبيل الاستعارة المكنية وإثبات الطيران للثناء الأشنع تخييل ، وهو قرينة المكنية ، وهذه الاستعارة تجسد الزلل والسقوط فى مقام الخصومة ، وتبرز سرعة انتشار الذكر القبيح المترتب على ذلك بين الناس ، مما يؤكد صعوبة هذا المقام وشدته ، ببيان شدة وقع الإخفاق فيه ، وبعد أن صور هول المشهد وقرر فظاعته ، أخذ يحكى ما حدث فيه من تفوقه على خصومه ، وفى ذلك من التشويق وتحريك النفوس لترقب ما يحدث فى هذا المقام ما فيه .

يقول :

أَصْدَرْتُهُمْ فيهِ أُقَوِّمُ دَرْأَهُمُ

عَضَّ الثِّقَافِ وهُمْ ظِمْاءٌ جُوَّعُ

أى : حاججتهم فى هذا المقام حتى صدروا عن رأيى ؛ لما فيه من الاستقامة والقوة ، وهو كناية عن الغلبة وإلزام الحجة .

ثم يبين كيف تحققت له الغلبة ، وكيف صدروا عن رأيه بهذه الصورة التشبيهية الطريفة : (أقوم درأهم عض الثقاف ، وهم ظماءٌ جوَّعُ)

والدرء : العَوَج ، والثقاف : ما تُقوّم به الرماح وتُسدّد به القنا [٢] .

---

(١) لسان العرب مادة (شنع) ١٨٦/٨.

(٢) المفضليات مع شرح الأنبارى ص ٣٠١ .

يقول : قوّمتهم فيه وسدَّدتهم للصواب ورددتهم إليه، كما يُقوّم عُوجُ الرماح بالثقاف حتى تستوى [١] ، شبه تقويمه لعَوَج آرائهم حتى ردّهم للصواب بتقويم عوج الرماح وإصلاحها بالثقاف حتى تستوى .

والوجه : الاستواء والاستقامة بعد الاعوجاج ، وهو تحقيقى فى المشبه به تخييلى فى المشبه ، ومن ثم ألحق التخييلى بالتحقيقى بقصد بيانه وتوضيحه .

واصطفاء التعبير بـ(عضٌ الثقاف) لبيان شدة وقع كلامه عليهم ، وقوة إيلامه فيهم حتى أفحمهم وألزمهم الحجة فصدوا عن رأيه .

والغرض من التشبيه هنا بيان مقدار صفة المشبه وحاله فى القوة ؛ حيث وضح التشبيه مقدار قوة حجته وكشف عن حاله فى تقويم عوج آرائهم حتى استوت واستقامت على رأيه .

وجملة : (وهم ظماءٌ جوع) فى موضع الحال ، وهى قيد لقوله (أقوم درأهم) ، أى قوّمتهم وهم على هذه الحال من الظمأ والجوع .

والمعنى : حبستهم عن الطعام والشراب لما هم فيه من الجدال والخصام حتى قوّمت معوجّ رأيهم وصدروا عن رأيى [٢] ، وهى تؤكد مقصودة فى إثبات غلبة منطقه وسحر بيانه الآثر ، وتقرير هيمنته عليهم بقوة الحجة وصواب الرأى.

وقد ترتب على ذلك تفوقه عليهم حتى أضعف وحدتهم وجعلهم شتى ، وصار سيدهم محط السخرية منه ، وهذا ما عبرت عنه فاء الترتيب والتعقيب فى قوله :

---

(١) السابق نفسه .

(٢) ينظر : المفضليات مع شرح الأنبارى صـ٣٠١ .

فَـــــرَجَعْتُهُمْ شَـــــتَّى كـــــأَنَّ عَمِيـــــدَهُمْ

فِي المَهْـــــدِ يَمْـــــرُثُ وَدْعَتَيْـــــهِ مُرْضَـــــعُ

والمقصود : أنه أجهز عليهم بقوة حجته ونصاعة بيانـــه حتـــى فـــرّقهم وشتت وحدتهم وغلبهم .

وقد أكد هذه الغلبة بتلك الصورة التشبيهية الناطقة بكل معانى الســـخرية والاستهزاء من سيدهم ، حيث شبه سيدهم الذى يعتمدون عليه وقد بُهتوا وغُلبوا وكأنه صبى فى المهد يمص ودعتيه ويلوكهما (كأن عميدهم فى المهـــد يمـــرث ودعتيه مرضع) : عميدهم : سيدهم ، يمرث : يمص ، ومنـــه مـــرث الصـــبى إصبعه: إذا لاكها [١] ، والودعة : خرزة تعلق لدفع العين [٢] .

والمقصود : أنهم بهتوا وعجزوا عن الجواب ، حتى صار سيدهم عـــاجزًا فانصرف إلى فعل الأطفال السذج ، وفى هذا من التبكيت والتهكم ما لا يخفى .

وبذا يتبين لنا قدرة الشاعر وبراعته فى انتقاء ألفاظه وتراكيبه وصـــوره المعبرة عن أغراضه ومقاصده .

---

(١) لسان العرب مادة (مرث) ٤٩٠/٢ .

(٢) لسان العرب مادة (ودع) ٣٨١/٨ .

المبحث الرابع

ختم القصيدة وعلاقته بمطلع ومعاني القصيدة

يختم الشاعر قصيدته بتقرير حقيقة يعتقدها ويوقن بها يقينًا راسخًا ناشئًا عن عقيدته الإسلامية وتجربته الحياتية واعتباره بحال من قبله ، وهى أن الموت نهاية كل حى ، وأن القبر غاية أمره ، فيقول :

٢٣ - ولقد عَلِمْتُ بأَنَّ قَصْرِيَ حُفْرَةٌ
غَبْرَاءُ يَحْمِلُني إليها شَرْجَعُ

٢٤ - فبَكَى بَنَاتِي شَجْوَهُنَّ وزَوْجَتِي
والأَقْرَبُونَ إِلَيَّ، ثُمَّ تَصَدَّعُوا

٢٥ وتُرِكْتُ في غَبْرَاءَ يُكْرَهُ وِرْدُهَا
تَسْفِي عَلَيَّ الرِّيحُ حِينَ أُوَدَّعُ

٢٦ فإِذا مَضَيْتُ إلى سَبِيلِي فَابْعَثُوا
رَجُلاً لَهُ قَلْبٌ حَدِيدٌ أَصْمَعُ

٢٧ - إِنَّ الحوادثَ يَخْتَرِمْنَ، وإِنَّمَا
عُمْرُ الفَتَى في أَهلِهِ مُسْتَوْدَعُ

٢٨ يَسْعَى ويَجْمَعُ جاهِداً مُسْتَهْتِرًا
جِدًّا، ولَيْسَ بآكِلٍ ما يَجْمَعُ

٢٩ - حتَّى إذا وَافَى الحِمَامُ لِوَقْتِهِ
ولكُلِّ جَنْبٍ لا مَحَالَةَ مَصْرَعُ

٣٠ - نَبَــذُوا إِليــهِ بالسَّــلاَم فلَــمْ يُجِــبْ

أَحَــداً وصَــمَّ عــنِ الــدُّعَاءِ الأَسْــمَعُ

وقد بنى تعبيره عن هذه الحقيقة على أسلوب القسم بقصد تأكيد عمق إحساسه بها وإيقانه بوقوعها خاصة بعد أن تقدّم عمره وضعف بدنه وبصره .

فالواو فى قوله (ولقد علمت) واو القسم ، أى : والله لقد علمت ، وقد ضم إلى القسم لام التأكيد و (قد) الداخلة على الفعل الماضي لتتآزر جميعها فى تحقيق علمه ويقينه بأن غاية أمره قبر يوضع فيه .

ومعلوم أن هذه الحقيقة لا تحتاج إلى زيادة تأكيد لعلم الناس بها وعدم إنكارهم لها ، غير أن الشاعر قصد إلى نقلها والتعبير عنها كما أحسها مؤكدة راسخة فى نفسه مستقرة فى وجدانه وشاعره .

يقول : اعتبرت حالى فيما يؤول إليه أمرى بحال من كان قبلى ، فتيقنت أن غاية أمرى قبرٌ ، يحملنى إليه هذه الخشبات (شرجع) ، ولا يملك أهلى وولدى نصرًا لى ، ولا يستطيعون عنى دفعًا ، إلا بكاءً وحزنًا ، ثم تفرقًا ونسيانًا [١] ...

وقوله (بأن قبرى حفرة) أى نهاية أمرى حفرة ، يقال قصرك أن تفعل كذا وقصارُك وقُصارُك وقصاراك ، وهو كناية عن الموت ، أى : أنا أعلم أن آخر أمرى الموت [٢] .

والمقصود بالحُفرة : القبر الذى يحفر فى باطن الأرض يدفن فيه الميت ، وقوله (غبراء) صفة لـ (حفرة) أى حفرة يأتى عليها الغبار ويسفيها التراب.

---

(١) ينظر : شرح اختيارات المفضل للتبريزى ٧٠١/١ .

(٢) المفصليات مع شرح الأنبارى ص ٣٠١ .

ثم وصف كيفية وصوله إلى قبره فقال (يحملنى إليها شرجع) ، والشرجع : خشب يُشد بعضه إلى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى [١] أى أحمل إلى هذه الحفرة بواسطة هذه الخشبة المشدودة ، فإسناد الفعل (يحملنى) إلى (شرجع) مجاز عقلى علاقته الآلية ، لأن الناس يحملونه عليه حتى يدفن فى قبره ، والمقصود منه المبالغة فى تصوير غاية أمره ونهايته المحتومة .

ثم يتخيل الشاعر حال أهله عند موته فيقول مرتبًا على ما سبق :

فَبَكَى بَنَاتِي شَجْوَهُنَّ وَزَوْجَتِي

وَالأَقْرَبُونَ إِلَيَّ، ثُمَّ تَصَدَّعُوا

فهم يبكون ويحزنون عند التشييع، حتى إذا ما دفنوه فى قبره وأدخلوه فى حفرته وودعوه، تفرقوا وذهبوا يتقاسمون أمواله ويشتغلون بأمورهم تاركين إياه فى أرض غبراء موحشة يكره الناس وردها والسير فيها، والمقصود من الإخبار هنا إظهار مدى الحزن والمرارة من نسيان أهله له بعد دفنه ، أى : بكوا علىّ ساعة ثم تفرقوا لشأنهم ونسونى [٢] وكأنه يقصد إلى حث أبنائه على تذكره بعد موته وعدم نسيانه .

وبينما هو فى حال الضعف والوهن باستشعار الموت وقرب النهاية ، يتوجه بالخطاب إلى أبنائه ليبرز مكانته التى تجعلهم لا ينسونه :

فَإِذَا مَضَيْتُ إِلى سَبِيلِي فَابْعَثُوا

رَجُلاً لَهُ قَلْبٌ حَدِيدٌ أَصْمَعُ

(١) المفصليات مع شرح الأنبارى ص ٣٠١ .

(٢) المفضليات مع شرح الأنبارى صـ٣٠١ .

أى : إذا مت فاطلبوا من يقوم مقامى فلن تجدوه ، فالأمر فى قوله (فابعثوا) يفيد التعجيز ، أى إظهار عجزهم وقلة حيلتهم عند فقده فى إيجاد رجل مثله له قلب قوى متماسك مثل الحديد الأصمع، أى: المجتمع غير المنتشر [١] .

وكأنه ينعى إليهم فقده وللكشف عن معظم مصابهم فيه، فيقول: إذا مت فافتقدوا عميدًا مثلى[٢].

ويختم موعظته بتلك الحكمة المؤثرة البالغة شغاف القلوب :

إِنَّ الحوادثَ يَخْتَرِمْنَ، وإِنَّما
عُمْرُ الفَتَى في أَهلِهِ مُسْتَوْدَعُ

والمعنى: إن نوائب الدهر ونوازله تفنى الأعمار ، أى تكون سببًا فى ذلك فإسناد الافناء إليها مجاز عقلى لعلاقة السببية ، وقوله (يخترمن) أى : يقتطعن، فالتعبير عن الإفناء بالاختزام والقطع استعارة تصريحية تبعية فى الفعل (يخترمن) يقصد منها المبالغة فى إبراز شدة أثر الحوادث والنوائب فى الإنسان ، فهى تقتطع من صحته ، وتأخذ من قوَّته شيئًا فشيئًا حتى يفنى وينتهى عمره بسببها ، كما يؤمئ إلى ذلك التعبير بصيغة المضارع (يخترمن) لاستحضار المشهد المتجدد بتجدد نوائب الزمان ونوازله .

وتأكيد هذه الجملة بـ (إنَّ) لترسيخ مفهومها وتقويته وتثبيته فى النفوس حتى لا تغتر بقوة أو صحة ، وقد زاد فى تأكيد ذلك بجملة القصر المعطوفة عليها :

وإِنَّمَا عُمْرُ الفَتَى في أَهلِهِ مُسْتَوْدَعُ

---

(١) المفضليات صـ١٤٨ .

(٢) المفضليات صـ١٤٨ .

حيث قصر العمر على كونه وديعه ترد قصر موصوف على صفة ، والمقصود تأكيد بثبوت الموت والنهاية ونفى البقاء والاستمرار ، حيث شبه العمر بالوديعة فى الفناء وعدم الاستمرار ، كما قال الشاعر[١] :

وما المال والأهلون إلا وديعة

ولابد يومًا أن ترد الودائع

فالوديعة تبقى رهينة لطلب المودع، فلا يملك من بيده الوديعة التصرف فيها أو رفض ردها لصاحبها.

ثم يصف حال الفتى في سعيه الجاد لجمع الأموال وحرصه على ذلك حتى يأتيه الموت فجأة :

يَسْعَى ويَجْمَعُ جاهِداً مُسْتَهْتِرًا

جِدًّا ، ولَيْسَ بآكِلٍ ما يَجْمَعُ

حتَّى إذا وَاقَى الحِمَامُ لِوَقْتِهِ

ولكُلِّ جَنْبٍ لا مَحَالَةَ مَصْرَعُ

نَبَذُوا إليهِ بالسَّلاَم فَلَمْ يُجِبْ

أَحَداً وصَمَّ عنِ الدُّعَاءِ الأَسْمَعُ

فقوله : (يسعى ويجمع جاهدًا مستهترًا جدًا) تصوير لحال الإنسان فى سعيه وحرصه الشديد على جمع المال واستحضار لهذا المشهد المفعم بالمجاهدة والولع والوله ، الغافل عن المصير والنهاية ، ولهذا جاء التعبير بصيغة الفعل المضارع (يسعى ويجمع) ، وحذف المفعول به بقصد إفادة الشمول والعموم ،

(١)البيت لـ "لبيد" في ديوانه ص٥٦ دار المعرفة- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م

وجاءت الحال الكاشفة والمصورة لطبيعة سعيه وسلوكه فى جمع الأموال (جاهدًا مستهترًا جدًا) ، وكذا التأكيد بالمصدر (جدًا) أى جادًّا فى ذلك جدًا .

فمجيء التركيب بهذا الشكل المعبر والكاشف أسهم فى نقل هذا المشهد واستحضاره ؛ لتتحقق الغاية فى الموعظة والاعتبار ، كما يؤكد ذلك جملة (وليس بآكل ما يجمع) والتى تنفى إفادته وانتفاعه بكل ما يجمع ، فما الداعى إلى هذا الولع والاستهتار ؟! وقد أكد النفى بالباء الزائدة (بآكل) لتستقر الموعظة فى الأذهان .

ويستمر الإنسان فى ولعه وحبه الشديد لجمع الأموال غافلًا لاهيًا حتى يأتيه الموت بغتة فلا يستطيع ردّه ، وهذا ما يشعر به التعبير بـ (حتى) فى قوله : (حتى إذا وافى الجمام لوقته) أى يظل الفتى مستمرًا فى ذلك مستهترًا غافلًا حتى يوافيه الموت ، فالحمام : الموت .

وقوله : (ولكل جنب لا محاله مصرع) تعبير عن عموم الموت لكل نفس ، كما قال سبحانه : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) أل عمران :١٨٥

وقوله : (لا محالة) اعتراض قصد به تأكيد نفى الحيلة فى دفع الموت عند مجيئه ، أى : لا حيلة لأحد فى دفع المنية عند مجيئها [١].

ثم يصور عجز الإنسان عن الإجابة برد السلام بعد موته وقد كان الأسمع فى الدنيا :

نَبَذُوا إِليهِ بالسَّلاَم فَلَمْ يُجِبْ
أَحَداً وصَمَّ عنِ الدُّعَاءِ والأَسْمَعُ

وهذا إبلاغ فى وصف العجز يقصد به الحمل على العظة والاعتبار .

---

(١) ينظر : المفضليات مع شرح الأنبارى صـ٣٠٢ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أهل الخير والبركات.

بعد هذه الدراسة البلاغية التطبيقية لعينية "عبدة بن الطبيب"، يمكننا أن نوجز أهم النتائج فيما يأتي:

١ــ أعجب الأدباء والنقاد بشعر عبدة ، وبجودة معانيه، وحسن تقسيمه، فقد قال الجاحظ – بعد أن عرض بعضا من شعره–:" وهذا الشعر من غُرر الأشعار، وهو مما يُحفظ"(١).

٢ــ جمعت معاني القصيدة بين الرقة والسهولة حينا، والقوة والجزالة حينا آخر؛ ولهذا جاء نظم القصيدة على "بحر الكامل"، وهو بحر متسرع بالموسيقى، ويجمع بين صفتي الفخامة والرقة.

٣ــ حمل مطلع القصيدة دلالات وإشارات على الغرض المقصود، وهو الوصية والنصيحة؛ مما جعل القصيدة تتسم ببراعة الاستهلال في مطلعها، وبذا يكون بمثابة العنوان لها، والمفتاح الذي يمكِّن المتلقي من الغوص في معانيها.

٤ــ راعى الشاعر في ذكر مآثره، ووصاياه الترتيب من حيث الأهمية، والتنويع في الأسلوب، والانتقاء للألفاظ التي تنسجم مع طبيعة كل مأثرة من مآثره، أو وصية من وصاياه.

٥ــ حشد عبده بن الطبيب فى عينيته كل وسائل التعبير والتصوير المؤثرة ليتحقق له غرضه ومقصوده فى الوصية والعظة ، فقد كان عبده حريصًا على انتقاء الألفاظ الموحية والمتناغمة مع معانيها ، فجاءت جزلة قوية في

(١)الحيوان للجاحظ ١٦٧/٤.

مواضع، وعذبه سلسة فى مواضع أخرى ؛ لتنسجم مع طبيعة كل معنى عبر عنه بها فى كل سياق جزئى من القصيدة ، وقد انعكس ذلك على البناء اللغوى للقصيدة فجاءت التراكيب مترابطة والصور معبرة وكاشفة .

٦ــ كما حرص في نظمه لقصيدته على الجمع بين أسلوبى الخبر والإنشاء ؛ ليفيد من عطاءات كل أسلوب فى التعبير عن مقاصده ، ولما كانت القصيدة تحمل إحساسًا بدنو الأجل والتقدم فى العمر فقد حرص الشاعر على تصدير قصيدته بهذا النداء المعبر عن عاطفته الجياشة ومشاعره القوية الحزينة ، والمترقب جوابًا وتلبية لندائه :

أَبَنِيَّ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ ورَابَنِي
بَصَرِي ، وفِيَّ لِمُصْلِحٍ مُسْتَمْتَعُ

وختمها بذكر حال الميت لا يستطيع جوابًا :

نَبَذُوا إِليهِ بالسَّلاَم فَلَمْ يُجِبْ
أَحَداً وصَمَّ عَنِ الدُّعَاءِ الأَسْمَعُ

فكان فى المطلع بوح ومُكنة فى التعبير عن المشاعر والانفعالات ناسبهما التعبير بأسلوب الإنشاء (النداء) ، وفى الختم حسم بالموت ، وقطع للجواب ، وعجز عن الرد ناسبه أسلوب الخبر ، وبذا يتعانق الأسلوبان فى التعبير عن مقاصد الشاعر ، وينسجم كل أسلوب مع المعنى المعبر عنه به .

٧ــ ولما كان مقصود الشاعر وغرضه الرئيسى فى القصيدة هو الوصية ، فقد ارتبطت معانى القصيدة بفكرة الترغيب والترهيب التى تشيع فى أدب الوصايا، الترغيب فى فعل الخير والعمل النافع المفيد ، وقد جعل الشاعر من نفسه قدوة لأبنائه فى القول والفعل فتحقق له الترغيب ، كما حذَّرهم من فعل

النمَّام، ومن الركون إلى قومٍ غلبت عداوتُهم أحلامهم ، وامتلأت صدورهم ضغينة وحقدًا ، فتحقق له الترهيب ، وهذه الفكرة تقوم على التقابل بين المعاني الذى يجلّي الغرض ويرسخ المقصود .

وقد غلب على الشاعر سلوك طريق الخبر فى سياق الترغيب ، واتخذ من البيان والتفصيل بعد الإبهام والإجمال ، ومن التنكير المتبوع بالأوصاف ، والتعريف المقرون بالأحوال وسائل للتعبير عن مقاصده فى هذا السياق ، وسلوك طريقى الأمر والنهى فى سياق الترهيب والتحذير والتخويف ، واتخذ من التشبيه والاستعارة والكناية وسائل متنوعة فى وضوح الدلالة والكشف عن أغراضه وإبراز معانيه فى هذا السياق وبذا يكون قذ جمع من وسائل التأثير المتنوعة ما مكنه من التعبير عن معانيه ؛ مما يورث كلامه تناغمًا وانسجامًا بين المعانى والمقاصد وبين الأدوات البيانية المعبرة عنها .

والله وليُّ التوفيق

المصادر والمراجع

(١) أبو تمام وقضية التجديد في الشعر- د / عبده بدوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر تحقيق/ محمود محمد شاكر- مطبعة المدني القاهرة.

(٣) الأسلوب بناؤه وإيحاؤه د/ عبد الموجود متولى بهنسي- مطبعة الأمانة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني – طبعة: السعادة ١٣٢٨ه.

(٥) الأعلام للزركلي - دار العلم للملايين- الطبعة الخامسة٢٠٠٢م.

(٦) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - ط بولاق.

(٧) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، ط : دار الكتب العلمية – بيروت .

(٨) البديع لأسامة بن منقذ تحقيق/ عبد المجيد بدوي- طبعة: وزارة الثقافة- مصر١٩٦٠م.

(٩) بغية الإيضاح للشيخ / عبد المتعال الصعيدي- مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠٠٥م .

(١٠) البيان والتبين للجاحظ - الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ ٢٤١/١.

(١١) تاج العروس للزبيدي . طبعة: الخيرية- مصر ١٣٠٦ه.

(١٢) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) د / شوقي ضيف – دار المعارف– مصر.

(١٣) تاريخ الطبري تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم– طبعة: دار المعارف– مصر١٩٦١.

(١٤) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور – الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م .

(١٥) جمهرة الأمثال– أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) – الناشر: دار الفكر – بيروت.

(١٦) جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي – تحقيق/ عبد السلام هارون– طبعة: دار المعارف– مصر١٣٨٢ه١٩٦٢م.

(١٧) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي– أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: ٧٤٩هـ) – تحقيق: د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان– الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(١٨) جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمي ، مؤسسة المعارف – بيروت .

(١٩) حاشية الدسوقي على مختصر السعد (ضمن شروح التلخيص).

(٢٠) الحيوان للجاحظ تحقيق/ عبد السلام هارون– طبعة: الحلبي ١٩٤٥م.

(٢١) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى– مكتبة وهبة ، الطبعة الثالثة .

(٢٢) الخصائص لابن جنى – ت : محمد على النجار – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٦ م .

(٢٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق / أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

(٢٤) ديوان امرئ القيس ص٥٤ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم- الطبعة الخامسة- دار المعارف- مصر.

(٢٥) ديوان لبيد - دار المعرفة- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٢٥ه ٢٠٠٤م

(٢٦) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري - دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٤ه ١٩٩٤م.

(٢٧) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم- الطبعة الثالثة دار المعارف- مصر.

(٢٨) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري المتوفي ٥٨٣ هـ .الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ .

(٢٩) الرسالة الموضحة للحاتمي . تحقيق/ محمد يوسف نجم. طبعة: بيروت١٣٨٥ه ١٩٦٥م.

(٣٠) شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزي ، ت د / فخر الدين قباوة ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

(٣١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي الناشر: دار القلم – بيروت.

(٣٢) شرح ديوان الحماسة- المرزوقي . تحقيق/غريد الشيخ- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

(٣٣) شروح التلخيص – طبعة: دار السرور- بيروت.

(٣٤) شعر عبدة بن الطبيب ، للدكتور/ يحيى الجبوري – دار التربية للنشر والتوزيع – بغداد ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

(٣٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق/ أحمد محمد شاكر– طبعة: دار المعارف– مصر١٣٨٧ه١٩٦٧م.

(٣٦) صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم– مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري(ت ٢٦١هـ) تحقيق : أحمد فؤاد عبد الباقي– الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣٧) عروس الأفراح للسبكي٤/٥٣٣ (ضمن شروح التلخيص) طبعة: دار السرور– بيروت.

(٣٨) العقد الفريد– أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ). الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ .

(٣٩) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني – الطبعة الأولى– دار الطلائع– القاهرة٢٠٠٦م).

(٤٠) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري – تحقيق / محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة .

(٤١) فن البلاغة ، د / عبد القادر حسين ، مؤسسة الرسالة .

(٤٢) في الميزان الجديد– د/محمد مندور – الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– ٢٠٠٤م).

(٤٣) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة ، منشورات مكتبة النهضة – مصر– ط: الثالثة ١٩٦٧ م .

(٤٤) الكامل للمبرد . تحقيق/ زكي مبارك، وأحمد شاكر. طبعة: الحلبي ١٣٥٥هـ ١٩٣٧م.

(٤٥) الكشاف للزمخشري ، طبعة: دار الفكر– بيروت.

(٤٦) لسان العرب ، ط : دار الفكر – بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

(٤٧) مجمع الأمثال– أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ) تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد– الناشر: دار المعرفة – بيروت، لبنان .

(٤٨) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده – دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

(٤٩) المصباح المنير في غريب الحديث لأحمد بن محمد بن على الفيومي ، المكتبة العلمية – بيروت .

(٥٠) المصون في الأدب– أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري (المتوفى: ٣٨٢هـ) – تحقيق: عبد السلام محمد هارون– الناشر: مطبعة حكومة الكويت– الطبعة: الثانية، ١٩٨٤ م .

(٥١) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية د / عبد الحليم حفني – ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م .

(٥٢) المطول لسعد الدين التفتازانى ، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ .

(٥٣) المعاني الكبير في أبيات المعاني- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ). الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن بالهند [الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م].

(٥٤) معاهد التنصيص للعباسي - طبعة/ السعادة ١٣٦٧٥١٩٤٧م.

(٥٥) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)- تحقيق/ إحسان عباس- الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٥٦) ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ، تحقيق د / عبد اللطيف محمد الخطيب ، ط : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

(٥٧) مفتاح العلوم للسكاكي ، مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٤٥٦ هـ .

(٥٨) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - دار التحرير للطبع والنشر- القاهرة.

(٥٩) المفضليات للمفضّل الضبّي (ت٥١٨٧) ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، الطبعة السادسة .

(٦٠) المفضليات مع شرح الأنباري(أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري)- تحقيق/ كارلوس يعقوب مطبعة الآباء اليسوعيين- بيروت١٩٢٠.

(٦١) مقاييس اللغة لابن فارس - ط أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، ط : دار الجيل - بيروت .

(٦٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص) .

(٦٣) الموشح للمرزباني – تحقيق/ محمد علي البجـــاوي– ط: نـهضـــة مصـــر ١٩٦٥.

(٦٤) نـهاية الأرب في فنون الأدب– أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بـــن عبـــد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتـــوفى: ٧٣٣هـ) – الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة– الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٦٥) نور القبس (المختصر من المقتبس) – يوسف بن أحمد الحافظ اليغمـــوري ط: ١٣٨٤هـ .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٥٦٩٣
٢	التمهيد	٥٦٩٦
٣	المبحث الأول مقدمة في القصيدة وحسن الابتداء	٥٧١٩
٤	المبحث الثاني مسالكه البيانية في وصية ابنائه	٥٧٤٧
٥	المبحث الثالث افتخاره بنفسه	٥٧٧٦
٦	المبحث الرابع ختم القصيدة وعلاقته بمطلع ومعاني القصيدة	٥٧٨٣
٧	الخاتمة	٥٧٨٩
٨	فهرس المصادر والمراجع	٥٧٩٢
٩	فهرس الموضوعات	٥٧٩٩